كتاب الدوحة



ريجيس دوبريه

في مديح الحدود

ترجمة: ديمة الشكر

في مديح الحدود

ريجيس دوبريه

كتاب الدوحة 22

يوزع مجاناً مع العدد 65 من مجلة الدوحة مارس 2013

ترجمة لكتاب:
«Éloge des Frontière»
Régis DEBRAY
© Éditions Gallimard,
Paris, 2010

في مديح الحدود

تأليف: ريجيس دوبريه

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

إخراج وتنفيذ : القسم الفني - مجلة الدوحة
لوحة الغلاف : Ralph Steadman - المملكة المتحدة

في مديح الحدود

ريجيس دوبريه

ترجمة: ديمة الشكر

فهرس الكتاب

اتجاه معاكس 9

في البدء كان الجِلْد 21

أعشاش وكوى، العودة 45

أسوارٌ وأبواب، الصعود. (في ارتقاء) 57

قانون الفصل 69

هذا الكتاب هو تدوين لمحاضرة أُلقيت في البيت الفرنسي- الياباني في طوكيو، في 23 آذار- 2010. وقد أثارت صدىً إبّان مؤتمر في مؤسسة تريي Fondation des Treilles في شباط 2010، ونُشرت أعمال المؤتمر في دورية ميديوم،Médium ضمن العدد الخاص 24 - 25 المعنوَن بـ: حدود.

ينتصب الإله تيرم[1] كحارسٍ عند مدخل العالم. وضع الحدود الذاتية هو شرط الدخول إليه. فلا شيء يتحقق من دون أن يكون كائناً محدّداً. والكائن المتجسِّد ملء نفسه في فردانيته الخاصة، سيكون معجزة مطلقة، وإلغاءً عشوائيّاً لكلّ قوانين الواقع ومبادئه. في الحقيقة، ستكون في هذا نهاية العالم.

(لودفيغ فويرباخ)
مساهمة في نقد فلسفة هيجل - 1839

1- في الميثيولوجيا الإغريقية الإله تيرم Terme سليل آلهة الغابات والحيوانات، هو حامي الحدود الذي يوضع في الحقول، والمنتقم لاغتصاب الأراضي والملكيات.

اتجاه معاكس
(1)

ثمة فكرةٌ غبية تفتن الغرب: ليست الإنسانية بخير، وستغدو أفضل من دون حدود. زد على هذا، أنّ الديموقراطية- وفقاً لـ (قاموس الأفكار السائدة المسبقة) الطبعة الأخيرة - تفضي بطريقٍ مباشرٍ إلى هذا العالم الذي لا خارج ولا داخل له. لا يهم. خذوا برلين مثالاً؛ كان ثمةَ جدار، ولم يعد من جدار. وفي ذلك برهانٌ على أن الشبكة العنكبوتية، وجنّات التهرب الضريبي، والهجمات الافتراضيّة على المواقع، والسحب البركانية، والاحتباس الحراري، هي كلّها تسعى للتخلّص من تلك الحواجز الحمراء والبيضاء البالية، لإرسالها نحو المتحف البيئي، شأنها شأن المحراث ذي الذراع الخشبية، ورقصة البوريه الأوفرنية، والساعة السويسرية. وينطبق الأمر كذلك على كلّ ما له أهمية وكلّ ما هو منتشرٌ هنا في أوروبا، تلك «الصخرة الصغيرة الناتئة على سطح القارة الآسيوية»[1]، من محققين صحافيين، وأطباء، ولاعبي كرة القدم، ومصرفيين، ومهرجين، ومدربين شخصيين، ومحامي الأعمال، وبيطريين، فهم جميعاً

1- تعبير شهير للشاعر الفرنسي بول فاليري يصف من خلاله غموض التحديد الصارم لتخوم أوروبا الشرقية والشرقية الجنوبية، إذ يصف أوروبا باعتبارها صخرة ناتئة على سطح آسيا.

يضعون البطاقة الصغيرة: بلا حدود. فلا نبخسنّ من أهمية مهنٍ وشركاتٍ تنسى أن تذكر على بطاقات تعريفها، عبارات اللطف والمعونة لـ(افتح يا سمسم) الجديد هذا. فلا شكّ أن تعبير (جمركيون بلا حدود)! سيكون بدوره رائجاً في المستقبل القريب.

فلو كان السراب هو الذي يحيينا، ويخضّ دمنا، ويرمينا على قارعة الطريق عند الصباح الباكر، ويثير الارتعاش في ركبنا، لوافقنا على ذلك وقبلناه بقلبٍ مبتهج. إذ لا توسط ولا خيار، بين بلاهةٍ تروّح عن النفس وواقع يذوي. فمنذ مئة ألف عام ونحن ندفن أعزاءنا الموتى، مؤمنين بأنهم يستطيعون الالتقاء عمّا قريبٍ في الجنة، وفي ذلك برهان تامٌ يشبه خداعاً بصرياً مشجعاً لا يمكن رفضه. وقد مال الجنس البشري، من أجل مقارعة العدم ومجابهته، دوماً نحو جهة الصواب، جهة الوهم. فإن كان علينا أن نتصدى للوهم ونقارعه، فلأنه وتحت مظهره النصف كشّاف، والخليّ البال قليلاً، والنصف إنجيلي، والنصف تحرّري، لا يقدّم لنا أكثر من نفحة حرية، ولا يضمن لنا أوسع من جحر جرذ.

فلا تظنوا - إن جاز لنا القول - أنني أتيتُ إلى طوكيو كي أمدح طبقاً وطنياً وتراثاً في خطر. لستُ إلا مجرد فرنسيّ - أعترف بذلك - يمْثُل أمامكم، يحف مذاقٌ قديمٌ بتخوم مسقط رأسه الهشة. وحتّى الأمس القريب، كانت تحفّ بها خبرة تقنية معينة في رسم الحدود من دون استشارة الشعوب، من خلال تلك «الخطوط البيضاء المنقطة» للأطالس القديمة؛ في الصحاري، وفي الشرق الأدنى أو في شبه الجزيرة الهندوصينية. ولحسن الحظ، فإن هذا الهوس الاستعماري ينتمي إلى الماضي، ويستمد خفّة يده من فكرةٍ يصعب تقديسها: «أرض الوطن المقدسة»، بالرغم مما كنّا ندعوه قديماً في وطننا فرنسا (ذي الشكل السداسي) الحدود الطبيعية، تلك العصية في نظرنا على عدونا الألماني المعتاد. أما أرخبيل، مثل أرخبيلكم هذا، فيستطيع أن يوفّر على نفسه توجُّسات المتاخَمة وهمّ التجاور: إذ إنّ مداخله ونتوءاته لا تحمل أثر

معاركه، بل تحمل نزوات شطآنه. وحتى لو كانت جزر الكوريل[1]، أو تلك الجزر الصغيرة المتنازع عليها تعاني، فإن الجزر الكبيرة المكتحلة بالأزرق مثل اليابان أو إنجلترا، هي أقل تعرّضاً للتقسيم من الدول القاريّة مثل ألمانيا، والصين، وروسيا وبولونيا، تلك الدول المحاطة بامتدادات لا نهائية. ولنضف إلى القائمة فرنسا، إذ إن جمهوريتنا لم تكن لتعلن عن نفسها باعتبارها «موحدة وغير قابلة للتقسيم»، حتّى وإن لم تحتفظ بهاجسٍ غائم غامضٍ عن تعدٍّ وقضم ماضيين. فالتقسيم يصيبُ إيرلندا، وقبرص. لكن حالة الجزريّة- أي البلد المؤلفَ من جزيرة أو أكثر- تعطيكم أنتم عمقاً متناغماً متّسقاً. ليستْ القضية هنا قضية انتماء، ولا كآبة وطنية: فنصفا الكرة الأرضية يرسمان أصلاً خطاً فاصلاً. وقد كان لإدوارد غليسان[2]، شاعر الارتعاش والتواصل ذي الأصل المارتينيكي والهوى الكاريبي، باعٌ في معارضة أفكار النظام التي يسببّها الحزام القاري، «نزوع الأرخبيل لمساندة تنوّع العالم». أيا ليتَ جموع جزركم هذا يساعدني في دعم قضية التخوم والحدود المنبوذة. لعلّها قضية غرائبية في نظركم، لكّنها مألوفة بالنسبة لأوروبا، مثلما بالنسبة للحواجز القديمة.

«نحن دولة لا حدود لها»، قال لي أحدكم ليس من دون بعض الفخر والزهو. وقد كَنَّ لكم كلوديل[3] الضغينة بسبب هذا إذ قال: «أيها اليابانيون قد كنتم سعداء جداً في حديقتكم الصغيرة المغلقة». وكان ذلك قبل أن تخرجوا بوحشيةٍ من الحديقة كي تغزوا آسيا، ثم تُعاقبوا على ذلك بوحشيةٍ

1- جزر الكوريل Les îles Kouriles، هي أرخبيل من الجزر البركانية تؤلّف خطاً غير متصل يبلغ طوله 1200 كم، وتقع في أقصى شمال اليابان، عند القمة الجنوبية لشبه جزيرة كامتشاكا Kamtchatka، فاصلةً بين بحر Okhotsk والمحيط الهادئ. وتخضع هذه الجزر إدارياً لروسيا، وتطالب اليابان ببعضٍ منها. ويرتبط لفظ الكوريل بالسكان الأصليين فـ «كور» Kour تعني الإنسان في اللغة الأينوية.

2- إدوارد غليسان (1928-2011) Édouard Glissant، كاتب وشاعر ناقد مارتينيكي، ويعدّ أحد أهم الشخصيّات المؤثرة في الفكر والثقافة الكاريبيين.

3- بول كلوديل (1868- 1955) Paul Claudel شاعر ومسرحي وديبلوماسي فرنسي، هو الأخ الأصغر للنحاتة الفرنسية كاميل كلوديل. اشتهر بول بمسرحياته الشعرية التي تعكس إيمانه الكاثوليكي.

أيضاً في عام 1945. لكنّ جنّة عدن هذه التي أُحيلت رماداً، عرفتم أنتم كيف تعيدون بناءها بالروح من بعد هيروشيما بأكلاف جديدة. فقد تعلّمتم من أقصى الغرب كيفية خلق أقصى شرقٍ حديثٍ، لكن مغاير للغرب الأميركي. لا أعلم إن كان هذا مديحاً لكم، لكنني لا أرى أحداً أكثر حذقاً من الياباني المعاصر في فنّ الغربلة ونخل كلّ الأمور الوافدة. وأكاد أقول إنكم لستم بحاجة للأسلاك الشائكة، ولا للكوتا، ولا للرقابة، لتنقية وفلترة ما يرد من غذاء من الأزرق الواسع: السمك النيّء، وحروف الكتابة، والشوارع الخالية من العناوين، والأديان المتشابكة، وعباءات الكيمونو، تؤلّف كلّها، تحت سطحٍ فائق المعاصرة ومن دون عقد نقص، نسيجاً من الخيوط الدقيقة لكن المقاوِمة بصورةٍ تبعث على الانبهار والدهشة.

أمّا أنا، فقد أتيتُ من أرضٍ صلبة، خَدَّدها كلّها التاريخ. أتيتُ من أوروبا المتعبة بسبب حركتها الدائمة لزمنٍ طويل، أرض تفكّر في العطلة، وتحلم بمجتمع الرعاية والعناية. وقد جاهد ساستها لمحو حدودها اللغوية لصالح لغة موحدة هي الـ غلوبيش[1]، التي لا تحمل من الإنجليزية سوى الاسم.

هجرتْ أرضُنا الأوروبيّة - الـ يورولاند Euroland - وعاصمتها بروكسيل، رسمياً نظام «جوقة الأمم» القديم، الذي نشأ منه -بصورة غريبة- كلّ نوعٍ من أنواع النشاز والنغمات الخاطئة. وبعد هذا، تستغرب أرضنا الأوروبية، أن اليوناني لا يشبه السويدي، وأن الليتواني لا يشبه الإيطالي، وهو الأمرّ الذي تذكّره به كلّ أزمة على مضض. فأن يتخلى المرء عن ذاته، لَهُوَ جهدٌ عبثيّ حقاً؛ إذ من أجل تجاوز الذات من الأفضل أن نبدأ بقبولها وأن نضطلع بالمسؤولية. ففي أميركا الشمالية، يوجد أقل قدرٍ من التنوع ضمن أكبر قدر من المساحة. هناك للطرقات أرقام خاصّة بها. بيد أنّ الطرقات في أوروبا تحمل أسماءً خاصّة بها. ومن أجل هذه السعادة التي دفعتْ أوروبا ثمناً غالياً لها - والحقّ يُقال - حصلتْ على أكبر قدرٍ من التنوع في مساحةٍ محدودة. الأمرُ الذي

1- الغلوبيش Globish لغة مبسطة ومركبة، مرتبطة باللغة الإنجليزية المعيارية لكن مستقلة عنها.

يؤدّي بصورة عامةٍ إلى قمة في الحضارة (لا ضمانة لذلك، والدليل على هذا حروبنا الأهلية)، مثلما بيّنته إيطاليا في عصر النهضة، عبر منافساتها الانتخابيّة البلدية، حيث كانت الحظوظ متعادلةً أو «في منديل الجيب» كما يُقال. من هنا، وُلدت أرضٌ جماعيّة finistère من الدانتيلا، ذات تسع وتسعين ندبةً ممتدّةً على مساحة 250 ألف كيلومتر، يخضع نصفها فحسب، لحدود مائية مشتركة، وأنهار، وجداول، وخطوط القمم الجبلية (خطوط انقسام المياه). ومن الخطأ أن نقول عنها إنها حدود طبيعية. إذ للتضاريس ومجاري المياه، سطوةٌ تحثّ على الإيحاء والاقتراح، لكنها لا تستطيع أن ترقى إلى مصاف الحدود، إلا من خلالِ سجلٍ رسمي مبهرٍ، فهو وحده الذي يقدر أن يحوّل حادثةً طبيعيةً إلى قاعدة للحق. وبما أن «الخارطة هي انعكاس للذهن قبل أن تكون صورة للأرض» وفقاً لقول كريستيان جاكوب[1]، فإن الحدود هي قبل أي شيء، مسألة فكرية وأخلاقية. فهذا شأن الكائنات البشريّة. أمّا الحيوانات الأخرى فتتخذّ لنفسها مساحة خاصّة، من خلال أثرٍ وسيطٍ إمّا شمّي أو سمعي. حدودٌ متغيرةٌ وغائمةٌ، بارحة سانحة وفقاً للفصول، ووفقاً لعلاقات القوّة بين الأجناس والشعوب. أمّا نحن، فعلينا أن نؤسس: نزرع العلامات، نرفع الشعارات. فالثدييات القلقة (مثلنا) تقتطع مسكنها من المحيط الحيوي (قسم من العالم يتيسَّر فيه الوجود والحياة)، وركنها الزراعي من الطبيعة عن طريق الرموز. هي لا تبول، ولا تتغوّط، ولا تزغرد أو تغني، بل ترسم خطاً على الرق أو تلوِّح بميثاقٍ مناشدةً جوبيتير أو المحكمة العليا. ستحزرون إذن، لماذا تحت وطأة سجلٍ عدليٍ ثقيلٍ كهذا، تُستعمل أمثولة «الجسر» كلازمة للأوراق النقدية لليورو. إذ إنّ هذه الإشارة النقدية، وهذا الرمز الهزيل، وبطاقة المونوبولي (ذات الماركة المسجلة) هذه، ليس لها إلا

1- كريستيان جاكوب، Christian Jacob أستاذ وباحث فرنسي مختص بالثقافة الهيلينستية. مدير أبحاث في المركز الوطني للأبحاث العلمية في فرنسا. من أهم مؤلفاته:
«إمبراطورية الخرائط»: مقاربة نظرية لعلم الخرائط عبر التاريخ».

عذر وحيد: هي علامة كفّارة واستغفار. ألا أيتها الجسور المعلّقة على الفراغ، اجعلي هذه الحدود، التي لا أود رؤيتها، تختفي.

فأيّ كان يعي وجود انعطافة في مغامرة الجنس البشري، مع هذه الثورة النيوليتيكية (العصر الحجري الحديث)، المضاعفة التي أتاحتها لنا الابتكارات الرقمية. فهذا الانقلاب الكبير الكلي التواجد، معطوفاً على مد الذهب الأسود (مد النفط حين تغرق المراكب النفطية)، وزوبعة البورصة، والجائحات المفاجئة، تضفي كلّها نفحةً صغيرةً من القِدم التاريخي على شظايا العالم القديم (أوروبا)، في حين يطيح تسونامي الـ Mainstream، (التيار السائد) كما يقال، بحواجزنا الهزيلة التافهة. فهل هذا سبب كي يغدو المرء صاحب أفكار مسبقة أكثر منه صاحب مفارقات؟ لا أظن ذلك. لئن أعطتنا بلاد الشمس المشرقة كتاب «مديح الظل» بتوقيع الكاتب تانيزاكي[1]، فاسمحوا لي إذن بمديح الحدود الوافدة من بلاد غروب الشمس، هناك حيث كل ما يثقل حمله، وكلّ ما يُطرح، لا يتحدث أو لا يخبّر إلا عن الـ Cross-over (العبور)، والـ open-up (الفتح).

من المؤلم الاعتراف بالعالم كما هو عليه، ومن الطريف أن نحلم به مثلما نتمناه. فنحن جميعنا نفضل حبة الفاليوم® على القلق، ومن هنا ميلنا إلى العالم الذي لا حدود فاصلة فيه، هذه الترنيمة المهدهدة للأطفال- العجائز المدللين. عالمٌ كهذا، أذهبُ أنا إليه طوعاً كهروب إلى الأمام. هو حلم لكن بعيون مفتوحة، يهدف مثله مثل أخيه البكر، الحلم الليلي، إلى إشباع رغبةٍ مكبوتةٍ ممنوعةٍ. لا ليستْ رغبةً جنسية بل هي رغبة دينية: ساعة قبل الألفية، فيها نداعب كوكباً أملس، كوكباً تخلّص من الآخر، كوكباً لا مواجهات فيه، كوكباً عاد إلى عهد براءته الأولى، وإلى سلام صباحه الأول، كوكباً يشبه قفطان المسيح الذي لا خياطة فيه. أرضاً مشدودة الملامح، وكل الندوب

1 - (Jun´ichirõ Tanizaki, 1886 -1965) كاتب ياباني وأحد أهم أدباء الأدب الياباني الحديث، ولعله أكثر الروائيين شعبيةً بعد ناتسوم سوسيكي Natsume Sōseki.

ممحوّة من سطحها، وعنها اختفى الشرّ بمعجزة.

تذهب سحبُ التفجيرات النووية بهذا الاتجاه، وتسخر من Terminus تيرمينوس إله التخوم، الذي كانت روما تقدّسه. وتقيم له الشعائر في وسط صرح الكابيتول [1] الذي يقع في وسط المدينة. الإله الذي باسمه كنّا نزرع تمثالاً نصفياً [2]hermèsمن أجل تحديد طرف الحقل.

مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) هو أيضاً لا علاج له. هذا واقع. لكن ثمة واقع آخر ملازم للأول: لم يتم رسم حدود على الأرض بقدر ما تمّ خلال الخمسين سنة الماضية. سبعةٌ وعشرون ألف كيلومتر من الحدود الجديدة تمّ ترسيمها منذ عام 1991، في أوروبا وفي أوروبا الآسيوية على وجه الخصوص. وزيادة على هذا، فقد تمّ إعداد برامج لوضع عشرة آلاف حائطٍ وحاجزٍ وسياجٍ متقن الصنع ومستنفذ في خلال السنوات المقبلة. وقد استطاع الجيوسياسي والباحث ميشيل فوشيه [3] أن يحصي بين عامي 2009 و2010، ستاً وعشرين حالة من النزاعات الحدودية الخطيرة بين الدول. الواقعُ هو ما يقاومنا ويهزأ من مشاريعنا الوهمية.

أحفورةٌ بذيئةٌ هي الحدود، ربما، ولكنها تتحرك وتتلوى مثل شيطانٍ جميلٍ ساحر. يمدّ لسانه ساخراً من غوغل إيرثGoogle Earth، ويضرم النار، يوّلعها في السهول وفي الأمكنة المستوية: البلقان، آسيا الوسطى، القوقاز، القرن الإفريقي وصولاً إلى بلجيكا الهادئة.

أجل، فقد ظنّ العقل الجهبذي لمسقط رأسي، في المحافظة التي وُلدت

1- Le Capitole الكابيتول هو الهضبة الأصغر من هضاب روما السبع، يبلغ طولها 460 متراً، وعرضها 180 متراً. ويقع بين فوروم رامانون وميدان إله الحرب مارس. كان الكابيتول بمثابة القلعة الطبيعية لروما، وموقعه استراتيجي فهو يمثل عقدة المواصلات بين الطرق البرية والنهرية، إذ يشرف من ناحية على نهر التيبر، ومن ناحية أخرى على وادي الفوروم، الأمر الذي أتاح للرومان السيطرة على حركة النهر.

2- Hermes الهيرميس هو تمثال نصفي على ركيزة.

3- Michel Foucher ميشيل فوشيه هو جغرافي وجيو سياسي ودبلوماسي فرنسي ولد عام 1946.

فيها، أن إبدال عبارة أراغون[1]Hourra l'Oural بـ «فلتحيا مدينة العالم»، هو تقدُّم مؤكَّدٌ نحو الأمام. وأخشى أن تكون عودة المكبوت إلى الوعي قد فاتته. فهو يدمن الـ light، وما هو خفيف، ويتغنّى بالتيه، وبالحركة الكوكبية الجديدة. لا يقسم إلا بالـ Trans أي التجاوزي وبالـ Inter أي البيني، أي بما هو خارج وما هو بين[2] من الحدود، ويجعل المترّحل والقرصان مثالاً يحتذى، ويعظّم ما هو أملس رقراق (لا تضاريس فيه) وسائلٌ (المياه)، في الوقت الذي تعاود الحدود المشتركة والموروثة من عهد روما القديمة والقرون الوسطى الظهورَ في قلب أوروبا، وحيث تدعي حدود مناطقية تافهة ولا قيمة لها وموجودة أمام بابه، أنها حدودٌ وطنية. فكلٌ يشيدُ بالانفتاح، بينما تُضاعف صناعة الإغلاق (اللواقط الحرارية والنظم الإلكترونية) رقم أعمالها بعشرة أمثال. عالم الاستعراض والفن الـ Show-biz، يترنّم بمقولة «عالمٌ واحدٌ فقط»، بينما ازداد عدد الدول الأعضاء في هيئة الأمم أربعة أضعاف عما كانه قبل إنشائها. يتسّع أفق المستهلك، بينما ينكمش أفق الناخبين. وبينما يطغى كالمانترا[3]رنين مصطلح (نزع صيغة الحدود عن الأراضي) أو (اقتلاع الحدود) في مؤتمراتنا، فإن القانون الدولي يضع الحدود للبحار - التي كانت مشاعيةً سابقاً - ويؤقلمها ضمن ثلاث مناطق مميزة (المياه الإقليمية، المناطق المحاذية للشواطئ، ومناطق الامتياز الاقتصادي). الاقتصاد يتعولم، أمّا السياسية فتغدو مناطقية. وبوجود الخليوي والـ GPS (برمجية التموضع الجغرافي) والإنترنت،

1- الهورا أورال Hourra l'Oural هو الثمرة «الشاعرية» للويس أراغون الناجمة عن رحلته إلى منطقة الأورال في شهري آب وأيلول من عام 1932 مع إلزا تريوليه وثلاثة كتاب أجانب مع دليل نقابي سوفييتي لزيارة بناء الاشتراكية في هذه المنطقة من الاتحاد السوفييتي. وتعبر هذه القصيدة عن حماسة العضو الجديد أراغون عند رؤية العالم الجديد.

2- الحدود الداخلية والحدود البرية المشتركة(ويتضمن ذلك الحدود النهرية والبحيرية) والمطارات(للرحلات الداخلية) والمرافئ البحرية والنهرية والبحيرية (للتواصل والرحلات المنتظمة للسفن) في بلاد الاتحاد الأوروبي.

3- في الهندوسية والبوذية كلمات أو أبيات شعر أو مقاطع صوتية يعتقد أنها تملك قدرة روحانية أو صوفية يمكن تكرارها أو قولها مرة واحدة تتضمن حكمة روحانية تؤدي إلى درجة عالية من الوعي الروحاني.

أضحت البلدان المتعامدة جيراناً لنا، لكن الجيران الذين يقطنون البلدة نفسها أي الـ township، يستلّون سكاكينهم ويقتل بعضهم بعضاً بضراوة. هذا هو التفاوت الكبير! مفارقة فظيعة هائلة. إذ نادراً ما شاهدنا، في تاريخ السذاجة الغربية الطويل، فجوةً كهذه بين طرق تفكيرنا وحقيقة الأمور. بين ما نظنّه أمراً مرغوباً فيه وبين ما هو عليه في الواقع. بين ما يقال في الأممية الجامعية للمفكرين الأورو- أميركيين- هي البديل الهزيل عن الأمميات العمالية التي اندثرت- وبين ما يسود في حلبة مصارعة كوكبنا. في الولايات المتحدة، بعد الحرب، كان ثمة ملاجئ مضادة للقنابل الذرية. الأنتلجنسيا الما بعد وطنية -التي تسمى خطأً نقدية وراديكالية- تقدّم لنا ملاجئ مضادة للواقع، من خلال منظّرين من أصحاب المعرفة الواسعة لكن قليلي الخبرة.

راديكاليون؟ فلنحاول أن نكون كذلك، لكن من خلال العودة إلى الجذور.

أيُّ واقع نرغب في تجنّبه عندما نهرب نحو التفكير الرغائبي (المرتجى) الـ Wishful Thinking، ونلوّحُ بالكلمة - التميمة، هذه الذريعة السهلة، التي تعفينا من تبعات رغباتنا لما نريده؛ أي التنوع؟. نرغب في تجنّب واقعٍ عنيدٍ يصفعنا عند كلّ مرة ننسى فيها وصية جيوزيبي فيردي[1] الطليعية: «العودة إلى القديم ستكون تقدّماً». ونرغب في تجنّب عبثيةٍ جدّ ضرورية، ولا يمكن التغاضي عنها، ألا وهي: الحدود.

1- Giuseppe Verdi جيوزيبي فيردي (1813-1901) مؤلف موسيقي رومانسي إيطالي، ألّف الكثير من الأوبرا من أشهرها أوبرا لا ترافياتا وأوبرا عايدة.

في البدء كان الجِلْد
(2)

السؤال المباغت الذي يُبطل البرامج ويفسدها، قديمٌ قِدم قايين، القاتل الشهير وباني المدينة الأول. فهو لن يعود بإصرار قويّ، لو لم يكن ملتصقاً بطبيعة الأشياء، وبقانون تنظيمي، للأسف غير قابل للكسر، أملته التجربة. فكيفَ فعلت ذرية قايين؟ وكيف يمكن وضع شيءٍ من التنظيم داخل الفوضى؟ أي كيف يمكن تشكيل موقعٍ ما انطلاقاً من أرضٍ مهملةٍ لا على التعيين؟. يتمّ ذلك من خلال رسم خطّ. من خلال فصل الداخل عن الخارج. وفصل المباح عن الممنوع. لا زمن يحدّ سحر الحدود، إذ لا توجد ست وثلاثون طريقةً لتحويل ركام ما إلى كلّ متجانسٍ. وتعلن أساطيرنا المؤسِّسة كالعهد القديم، والإلياذة والإنيادة - دفعةً واحدة وبلا استعداد - عن هذه الحركة البدئية وغير المستساغة أي رسم الحدود. من الناحية السياسيّة فإن هذا غير ملائم، وهو من الناحية الأخلاقية غير محبب ومكروه، لكن لا يمكن تجنبه لتفادي المصادفة البحتة. كذا وضع الخالق الأعلى، جلّت حروف اسمه، نهايةً لهذه الفوضى: «فصل الله بين النور والظلمة»: في اليوم الأول. «وفصل المياه عن المياه»: في اليوم الثاني. «وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان

واحد». «ودعا الله اليابسةَ أرضاً. ومجتمع المياه دعاه بحاراً. ورأى الله ذلك أنّه حسنٌ». (سفر التكوين، الإصحاح الأوّل).

إذن، فمن أجل اقتطاع الكون من المكونات الأوّلية البدائية، سواء بضربة برق أو بضربة مبضع، فصل الله ما هو متصل. ومن دون حركة القوة اللّماحة لا يمكن النفاذ إلى الأمور الرمزية؛ فقد اقتطع الرب خِلقةً من عمقٍ ما، بغية إعطاء هيئة لما لا شكل له. ومن ثمّ، (سفر التكوين، الإصحاح الثاني) عاد ألوهيم - المفتون بهذا الاقتطاع المنتِج- إليه ثانيةً فخلق حواء عبر اقتطاعها من ضلع آدم. كذا فعل زيوسZeus، فقطع الخنثى الأولى (الأندروجين) إلى اثنين، بغية خلق الرجل والمرأة. تقوم إذن هذه الحركة المميزة والخاصّة للخالق - سواءٌ أكان الربّ، أم مايكل أنجلو أم آينشتاين- على الاقتطاع قبل الإضافة. فهي تنشأ من الـ arte di levare أيّ فن النحت أو فن الاقتطاع، لا من فن الـ arte di porre، فن التصوير أي فن الوضع والإضافة. وتتجلى عظمة البدايات والتكوين في وضوحها. تذهب علوم نشأة الكون الأسطورية هذه، - والمرتبطة بفكرة غربية جداً هي فكرة الخلق من العدم- إلى لبّ الموضوع رأساً: التمزّق، أو الشقّ الأولي، أو افتراع المياه المختلطة. هذه الحركة هي الحركة نفسها التي نجدها بعد اختراع الكتابة في مدونات الموروثات التاريخية المشتركة الكبرى؛ بينهم وبيننا، بين الإنساني واللا إنساني، بين الهمجي والمتحضر- وهذا قرارٌ جد خطير وحساس حتّى يُسلّم لمجرد قادة العصابات مثلاً. وقد اضطلع رجال الدين دائماً برسم الحدود، كذا فعل القضاة أو رجال الدين «العلمانيين» عندنا. وقديماً، كان الملوك يقومون بهذه المهمة، حين كانوا مسؤولين عن شفائنا من مرض السل. وفي عام 1494 اضطلع قداسة البابا الحبر الأعظم بمهمة الفصل - في معاهدة توردیسیلاس Tordesillas[1]

1- Le traité de Tordesillas معاهدة توردیسیلاس هي معاهدة عالمية وقعت في السابع من حزيران عام 1494، من أجل تقاسم العالم الجديد، الذي اعتبر بمثابة terra nullius بين القوتين الاستعماريتين الناشئتين إسبانيا والبرتغال.

- بين الحصّة التي تعود إلى العرش البرتغالي وتلك العائدة لإسبانيا، من أرض الهند الغربية. إذ حين لا يكون الأمر سهلاً يسيراً، فلا بدّ من شيء سام، رفيع الشأن. اليوم أيضاً، سيكون من الأفضل اللجوء إلى محكمة لاهاي أو إلى قداسة البابا خليفة القديس بطرس من أجل البتّ بقناة بيغل Beagle، أو البتّ بالبحر الإدرياتيكي، أكثر من اللجوء إلى تصويتٍ في الجمعية العمومية بأغلبية بسيطة. فالتحكيم الأعلى يمرّر الحكم الاعتباطي، ومن ثم يسود الصمت في صفوف الممثلين لدولهم.

هكذا كان الوضع في روما، مدينة المدائن. ففي الفصل الأول: قام رومولوس Romulus [1] بأخذ سكة المحراث، وحدّد بها الـ Pomerium [2]، فكانت تحديداً مقدساً ومنيعاً لتخوم هضبة الـ Palatin[3]، الذي سيدفع أخوه روموس Remus حياته ثمناً لها، إذ سيُقتَل عند القفز من فوقها. وهذه هي الحال في ما يخصّ جذورنا اللغوية. إذ إن لفظ Sacré (المقدّس) في الفرنسية، يُشتق من لفظ sancire اللاتيني، الذي يعني: تحديد، إحاطة، منع. ويعني كذلك: (معبد أو مُصلّى). ويرجع لفظ templum (مكان في فضاء أو مساحة، تحدّده عصا العرّاف المتنبئ بالغيب) اللاتيني بأصله إلى اللفظ الإغريقي temnein الذي يعني القطع أو البتر. فما هو منتصبٌ أمام الباحة المخصصة للعبادة هو الـ pro-fanun أيّ الدنيوي - ندبةٌ في الفراغ أو في الفضاء، ستسفر عن ندوب أخرى. فنحن نرى كيف يلتحق السياسي

1- تشكل القصة الأسطورية لمؤسسيّ روما: رومولوس وريموس جزءاً من الأساطير الرومانية. هما أخوان توأمان. والدهما إله الحرب مارس، ووالدتهما فيستالي ريا سيلفيا vestale Rhéa Silvia .

2- في روما القديمة البوميريوم هي المكان المسور المقدس لمدينة ما وخاصة حدود المدينة الرومانية التي خطها الملك روروميلوس بشكل ثلم عند إنشاء روما في عام 753 قبل الميلاد.

3- Le Mont Palatin جبل البالاتينو أحد هضاب روما السبع، ووفقاً للميثولوجيا أو الأساطير الرومانية التي قصّها تيت - ليف في كتابه تاريخ روما (الكتاب الأول)، فإن أصل إنشاء روما على جبل البالاتينو. وتقول الأسطورة إن الذئبة وجدت رومولوس وروموس تحت شجرة تين بريّ أمام مدخل مغارة لوبيركال الواقعة أسفل هضبة البالاتينو.

بالديني من خلال الحدود، وكيف يلتحق ما هو حاضرٌ بما هو موغل في القِدم من خلالها كذلك. ثمة قرابةٌ محتمةٌ (بين الاثنين). فقد كانت من أولى مهام الـ rex أو الملك باللاتينية، -مهمة كهنوتية صرفة- الـ regere fines أي حكم الحدود (باللاتينية)، أي أن يخط محيط الدائرة التي لا يستطيع أيّ كان في داخلها أن يفعل ما يشاء. وتبقى المشكلة عالقةً، فقد تصرّف هؤلاء الآلهة والأبطال وفقاً لدراية ومعرفة مكينتين. وروما القديمة دامت ألفَ عام. ويستطيع هؤلاء الذين قرروا إقامة حياة مشتركة، هنا والآن (hic et nunc باللاتينية)، أن يستلهموا (من روما)، وأن يقولوا: فلنبدأ أولاً بالفصل الفظ بين المجالات. من يفعل؟ ماذا؟ وأين؟ ومتى؟. فلننظر جيداً إلى الخارطة وإلى المخطط التنظيمي؛ مراسيم إعطاء (أو تخصيص) الملكية، توزيع للثروات، المحاصصة. إذ إن رسماً توضيحياً لهو خيرٌ من خطابٍ طويل.

كانت الجدران وبوابات المدن تشتهر في الحضارة اللاتينية بأنها «أشياء مقدسة». وهذا ما يجب أن ينْزع القداسة عن فكرة مبهمة بشكل خاطئ، تلك الفكرة التي يستمرّ أعتى الماديّين بتطبيقها، من دون علم منهم، لكن برضاهم التام. أَلَمْ يأخذ يانوس كادار[1] الحاكم الشيوعيّ الأخير لهنغاريا، الصلب والقوي البنية، الذي لم يكن يجترح المعجزات، عظام اليد اليمنى لمؤسس المملكة الهنغاريّة، القديس إتيين الأوّل(Saint Etienne 1er) [2]، -وهي من ذخائر الملك المؤسِس أو الزعيم في حالات أخرى- وجال بها على طول حدود بلاده لجعلها عصيّةً على الاختراق؟. بعيداً، وفي أماكن أخرى من أوروبا، تقع مهمة طرد الأرواح الشريرة إمّا على الأيقونة أو

1- يانوس كادار (1912-1989 János Kádár) قائد شيوعي هنغاري، والأمين العام لحزب العمال الاشتراكيين الهنغاري. حكم البلاد من عام 1956 وحتى بلوغه سن التقاعد عام 1988. وكانت هنغاريا خلال فترة حكمه تتمتع بالاستقرار والليبرالية بصورةٍ لم تُعهد من قبل في دول المعسكر الاشتراكي، وحتّى مجيء ميخائيل غوراتشيف كأمين عام للحزب.

2- هو أول ملك لهنغاريا من سلالة آرباد، واشتهر باسم القديس إتيين الأوّل أو سزينت ازتفان مؤسس مملكة هنغاريا. اعتنق الكاثوليكية مع أبيه وكان في العاشرة من عمره وتعمد باسم إتيين.

على الصليب. لكأنّ السحر مستمر. أو لكأننا لا نستطيع الاستحواذ على قطعة من القشرة الأرضية، من دون أن يضفي عليها أسيادُ الطقوس، قيمةً مقدسة. فنحن نضحّي بشيءٍ ما، بأن نهبهُ لشخصٍ آخر. كما لو أن فعل الهبة هذا، يمكّننا من إبقاء جزءٍ منّا عنده (عند الآخر). وفي معابد الماسونيين، لا توجد نوافذ ولا كوى جانبية، بل ثمة قبة كأنّها سماء بنجومٍ ذهبية. وكلّما تمنى عابرٌ ما، أن يبقى من بعده جزءٌ قليل منه، رفع عينيهً نحو نقطة سامية يظهر فيها: موسى، «المعماري العظيم»، ويظهر يسوع المسيح، وديغول، ولينكولن أو بوذا. فلا تبقَ ملتصقاً بأديم الأرض، أنت الذي لم يتسنَّ لرأسك أن يهيمَ يوماً ما في السحاب.

جميع أصول الكائن الحيّ يكتنفها الغموض: فهي جذابة ومنفرة؛ مقدّسة وواقعة بين فتحتي باب البدن (الشرج والتناسل). إنها قاعٌ وكهف (مَدفنٌ ومخدعٌ). الحدّ كذلك هو ثنائي القيمة. فهو محبوبٌ ومكروهٌ، وهو «سام وملعون»، مثلما وصف الصيني لو كسونLu Xun[1] سورَ الصين العظيم؛ فهو يردع العنف ويبرّره. يرسي السلام أو يطلق شرارة الحرب. يكبح ويحرّر. يفرّق ويجمع، شأنه شأن النهر (نهر الراين أو الدانوب مثلاً)، يربط ويفصل في آن معاً. كذا، فإننا نشتق من لفظ limen باللاتينية، لفظين هما: التوطئة liminaire، والتمهيد préliminaire. فهي (أي الحدود) العتبة والحاجز في الوقت نفسه، مثلما أن لفظ limes بالفرنسيّة يعني الطريق والحدّ كذلك.

لإله العبور يانوس[2] وجهان؛ كان لدى دعاة القومية منّا، مقدارٌ من

1- لو كسون (-183 245) هو جنرال عسكري ورجل سياسي في مقاطعة شرق فو خلال حقبة الممالك الثلاث في تاريخ الصين. وهو معروف اشتهر بدحره لقوات ليو بي (جنرال وامير حرب مؤسس ولاية شو هان) في معركة كسياوتينغ عام 222.

2- من آلهة الميثيولوجيا اللاتينية. هو إله برأس واحد ووجهين متعاكسين، إله المعابر والتقاطعات، إله التغيير والانتقال. ومنه اشتق اسم شهر جانفييه.

أسباب الحماسة للخط الأزرق الفاصل في مقاطعة الفوجVosges[1]، يماثل تماماً، ويقابل، مقدار ما لدى الاشتراكيين من أسباب خشيته. لا يوجد إلا ثابتٌ واحدٌ في هذا المجال القابل للانعكاس إلى الحدّ الأقصى. وهذا الثابت هو قياس شدّة المطابقة بين درجتَيّ الإغلاق والتقديس. إننا ننتهك حرمةَ القبر أو قدسيّته حين نفتحه، وننتهك المزارَ أو المحراب حين نقتحمه. ونجد فكرة الفصل هذه، مستعملةً أيضاً في علم أصول الكلمات Etymologies (التأثيل). الجذر قاف بالعبرية (قادوش) أو الحاء في العربية (حرم)- ومتجسدةً كذلك في طرق عمارتنا المدنية والدينية، فأنّى وُجد المقدّس، كان على الدوام مغطّىً، وفي مأمن، ومنفرداً، وخفيّاً إلى أقصى الحدود.

يقول الجهابذة اللغويون باستخفاف إنه «مصفاة دلاليّة»، غير مدركين في الواقع كم هم مصيبون في تعبيرهم هذا. إذ إنّ كلّ هذه الدروب تصب باتجاه فكرة الصحة أو الخلاص. فلِمَ نفصل الجسد عن الروح، إن كانا سينجوان معاً في نهاية المطاف؟. قدسيةٌ، أمانٌ. فلنفتح معجماً لاتينياً - فرنسياً ونبحث في لفظ salvare؛ وسنجد المعاني الآتية: أ/ شفى، ب/ أنقذَ، ج/حافظَ. تقابلها أ/أيها المسيح مُخلصنا ومُنجينا؛ وهي بطاقة المسيحيّ الحيوية. ب/عمادة المسيح؛ وهي بطاقة يانصيب تُكسب الحياة الأبديّة. ج/جسد المسيح هو خبز الذبيحة (البرشام)، يوضع في بيت القربان، ويُحاط ببلورتين رقيقتين، تحت أبصار المؤمنين، عند كلّ مناولةٍ إلا في عيد الجسد Corpus Christi[2].

غالبية الشعوب- أعني التي تحافظ على أرواحها أو حميّتها فالأمر سيّان- ترتبط بعلاقات عاطفية وتامّة القدسيّة مع حدودها. فلننْزع عن اللفظ الأخير (القدسيّة) غموضه وضبابيّته. ولنعطِ استراحة لما يتعذّر قوله، وما يتعذّر سبره. ولننظر عن كثب: المقدّس هو الملموس والصلب. فهو مصنوع مما هو صلدٌ صلبٌ، لأنّه صُنع من أجل البقاء. هو مرئيّ بالعين المجردة،

1- الفوج مقاطعة فرنسية وجزء من منطقة اللورين.

2- عيد الجسد، هو من الأعياد المسيحية، ومخصص لإجلال جسد المسيح وتكريمه.

ونحسّه بأقدامنا وبأيدينا. ويكون المقدّس دينياً أو دنيوياً: أكانَ مدفناً للعظماء، أو كاتدرائية، أو ضريحاً. ويمكن تحديده أو تعيينه منذ الوهلة الأولى عبر المستويات الآتية: سياجٌ من القضبان المتشابكة، درابزون حجريّ، درجاتُ السلّم، رواق ذو أعمدة، كنّة[1]، باحة صغيرة ودرابزون. وأمّا في حال المدن المكتظّة بالعمارات والأبنية، فإن المكان المقدّس يحتال على الاختلاط المشبوه بالمكان المديني - والقصر الإمبراطوري في قلب طوكيو المحاط بالأسوار والخنادق المائية مثالٌ ممتازٌ عن ذلك- من خلال فناء، أو باحة أو بوابةٍ، أو أيّ فراغ وسيطٍ، حامٍ وواقٍ. فتنظيم الفراغ والتنمية المستدامة ليسا إلا واحداً. وثمة دورٌ مزدوجٌ لهذا الغطاء المخرّم ذي الثقوب: الأوّل هو الفصل كيوم العطلة الفاصل بين ما هو عادي وما هو فوق العادي واستثنائي، والثاني هو التركيز كالمكان العالي الذي تشخصُ إليه الأبصار والأحلام. هي طريقةٌ لمواجهة عاديات الزمن، فلا نضمحل نحن كالهباء المنثور. وإذ اتفقنا أعلاه، على أن للمكان المنْزوي المتواري وجهين، يتحتمّ علينا وفقاً ليانوس القول إنّ: ثمة جنة (pairidaiza من اللغة الأفستية (المحكية الفارسية القديمة) وتعني الحديقة المغلقة)، وهي مكان الملذّات. وثمة قبو، مكان العذاب. وبالمثل ثمة الرواق، رواق الراهب البندكتي الذي نذر الثبات في الرهبنة عندما دخل إليه، وثمة الماخور، وهو منزل راهبات الجنس الملتزمات بالواجب أو بالنذر نفسه (خلافاً لفتيات المتعة، اللواتي لا مكان يجذبن إليه كالخورنية[2]). اجتماع الضدّين هو الأصل وبالتأسيس كذلك. لكن، عندما يتوّج الموتُ كلّ حياة، فليس هذا سبباً من أسباب الانتحار. إذ إنّ التقديس يحيلُ إلى الحياة ويستعين بها. فهو ارتكاس غزيرة البقاء في مواجهة خطر الزوال. الأمرُ الذي يجعله مُتعذراً مُمتنعاً صعب المراس،- وللمفارقة- قاتلاً ما إن يستحوذَ على صراع سياسي ما. ونظراً إلى أن التقديس لا يتمتع بطبيعة كمّية - وتالياً فهو لا

1- سقيفة أو رواق مفرد أمام مدخل بيت أو معبد.

2- خورنية: رعية أو قرية يخدمها الكاهن.

يقبل التفاوض- فهو يستثير الاندفاع نحو الأقاصي. فعندما تجاهد جماعةٌ ما، من أجل النجاة بجلدها أو الحفاظ على ما تمثله - مثل حائط، مسجد أو قبر أجداد- فإنها لا توفر الوسائل؛ لأنّ الصراع مميتٌ، وعلى أشدّه، ولأن الرهان ليس على ما تمتلكه، بل على ما هي عليه.

ما الفائدة اليوم من التقديس حيث كل شيء - بما في ذلك الدين- تُنزع القدسية عنه؟. ثمة فوائد منها: وضع مخزون الذكريات بمنأى، الحفاظ على استثنائيّة المكان، ومن خلاله الحفاظ على تفرّد شعبٍ وتميّزه.

أيّ تعبئة حيّزٍ غير قابل للتبادل في مجتمع يعتمد التبادل؛ فهو شكل أزليّ سرمديّ في زمن سريع التبخّر. وهو ما لا ثمن له في مجتمع كلّ ما فيه قابل للتسليع الكامل. أمّا التقديس المرتبط بالجسد البشري، فيحول دون أن يصيرَ هذا الجسد شيئاً، منتجاً كما غيره من المنتجات. إذ يكبح وضع القلوب والكلى والأكباد المخصّصة لزرع الأعضاء، في مزادٍ علنيّ ضمن مضاربة في سوق الأعضاء، ولمن يدفع أكثر.

لننظر هنا في ما يوضح علاقتنا القديمة العهد مع الظل: نوويس، مدافن في أقبية الكنائس، ديناميس، وسراديب الأموات، وكهوف؛ فكل ما هو مقعرٌ مجوفٌ، ومظلمٌ كتيمٌ، ومقدّس مترابطٌ (وثيق الصلة) منذ عهد مغارة لاسكو lascaux[1]. وتنتهك القاعدة الراهنة: انفتاح كل شيء على كل الناس، سرّ كراسي الاعتراف مثلما تنتهك غرف الحمام.

لا بدّ من التوضيح هنا: يجرّم مجتمع المنافذ والمداخل، ما هو خفيّ وما هو كتيم. لكن ذلك لا يمنع المجتمع من قطع خيطٍ ذهبيٍ عمره آلاف السنين. فمثلما يقبع مذبح الأسلاف في الكوخ الإفريقي في التجويف الجداري الأكثر ظلمة، بعيداً من الباب، توضع كذلك الشوكة أو القلفة أو

1- مغارة لاسكو La grotte de Lascaux هي إحدى المغارات الباليوليتية المزينة الأكثر أهمية من ناحية العدد والقيمة الجمالية لهذه الرسوم الجدارية. وتسمى أحياناً « كنيسة سيكستين للفن الجداري « حسب العبارة المنسوبة لهنري بروي الذي يسميها أيضاً « فرساي ما قبل التاريخ».

دم المسيح المقدس بعيداً في أعمق أعماق المدفن في قبو الكنيسة، ويوضع الناووس في القبو، تحت الأرض، وتوضع علبة البرشام عالياً وبعيداً عن متناول الأيدي. الشيء الأكثر قدسية الذي نملكه نحن - أحفاد كلوفيس [1] Clovis وروبيسبييرRobespierre[2] - من إرثنا كميثاق شيلديبير [3] Childebert، ولوح من نحاسٍ لإعلان حقوق الإنسان والمواطن، ووصية نابليون - ما يزال كله محفوظاً في صندوق في باريس في خزانة مصفحة وراء باب من حديد، نادراً ما يُفتح، في مبنى قصر روهان Rohan[4]: مقر الأرشيف الوطني. ويعرف مؤرشفونا وعلماء النصوص القديمة عندنا - الذين لم يعد عليهم أن يلبسوا عظام الملوك قميصاً من رصاص - يعرفون دائماً كيف يحولون قطعة ورق بردي إلى ذخيرة مقدّسة، وكيف يحولون مزقة من قماش إلى كنز. فنحن نرّصع الشيء نجوهره، أو نضعه في كيس، ثمّ نضع القفل - أو الشمع الأحمر- فنعلّق على الباب «ممنوع الدخول» ونذهب، آخذين المفتاح معنا.

ومن المؤكد أنه لا يوجد في هذا الشأن أي مجال لاستثناءٍ فرنسي بهذا الخصوص، اللهمّ، إلا في زركشات الملابس والمفردات. سأمتنع عن أنً أمدح لكم سراويلنا، ومنابلنا [5]، وخنادقنا، وكذلك أسيجتنا المصنوعة من شجر

1- كلوفيس الأ ول Clovis Ier ولد حوالي 466 وتوفي في باريس في 27 تشرين الثاني 511 وهو ملك الفرنج سابسان ثم ملك كل الفرنج من 481 إلى 511، ويعتبر حسب المؤرخين أحد الشخصيات التاريخية الأكثر أهمية في تاريخ فرنسا، وحسب التقليد الملكي يعد كلوفيس أول ملك مسيحي لمملكة فرنسا.

2- ماكسيمليان روبيسبيير، Maximilien Robespierre : محام وسياسي فرنسي. ولد عام 1758، وأعدم بالمقصلة عام 1794 في باريس في ساحة الجمهورية. هو أحدً أهم شخصيات الثورة الفرنسية وأكثرها إثارة للجدل.

3- شيديلبير الأول Childebert Ier: ومعناه «المحارب اللامع» بالفرنسية القديمة. ولد عام 497 ومات عام 558. كان شيديلبير ملكاً على فرنسا بين عامي -511 558، وملكاً على منطقة الأورليان بين عامي 524 - 558. كان الابن الرابع لكلوفيس والثالث من زواجه من كلوتيلد.

4- يقع قصر الروهان Le palais Rohan في مركز مدينة ستراسبورغ بالقرب من الكاتدرائية. ويضم اليوم ثلاثة متاحف: متحف الفنون التزينية، متحف الفنون الجميلة، ومتحف الآثار. تمّ إدراجه على قائمة الصروح التاريخية منذ عام 1920.

5- الشق في الحصن لرمي النبال أو السهام (شرفة في الحصن).

الطقسوس[1] ومن شجر السِدْر، وحفرنا الواسعة العريضة، ومتاريسنا، ومنابرنا الكنسية، ودرابزوناتنا الحجرية. إذ لكلّ حضارة Culture طرازها الخاص في الإغلاقClôture، كلمتان تتقفيان إذ تترادفان. إنني أرغب بالأحرى في أن أغبطكم على حضارتكم. فقد جعلتم من التعليب والتغليف صناعةً وفناً بالقدر ذاته، وكما قال كلوديل Claudel عنه: «لاشيء يُفتح إلا كي يُغلق». كم هي هشةٌ فواصلكم! وكم هي دقيقةٌ قواطعكم[2]! إذ إن الشوجيshôji[3] عندكم، ذا الأبواب المنزلقة، مصنوعٌ من الورق ومن مستطيلات صغيرة وقطع خشبية تتحكم في داخل بيوتكم بالكتيم والنصف شفاف. والتوكونوما tokonoma[4] عندكم، أي مخدع النوم في المنزل - حيث توضع نبتة البونزاي Bonzaï- ليس خلوة كأي خلوة أخرى. وتحتمي معابد الشينتو shintô عندكم، حيث تقطن الآلهة كاميس kamis، وراء خمائل عالية، بمداخلها المصفوفة، وتحتفي بها بوابات التوري torii بكلّ أبهة وتبجيل. حدائقكم مثل عالم صغير، لكأنها قصائد هيكو haïkus نباتية. وقصائدكم الموجزة القصيرة تُعيد الإنسان إلى الطبيعة، فتأخذه مسطحاتكم الخضراء إلى المنبع. لكأننا لا ننظر إليها من بعيد، بل ننبثق منها.

وكي أقول الأمر بسذاجة، أقول: هناك حيثما وُجد المقدّس كان ثمة امرأة حامل. وحيثما وُجدت الحامل كان ثمة حياة (الشابة الحامل المقاوِمة، كان النازيون أنفسهم ينتظرون أن تضع مولودها قبل أن يقطعوا رأسها). تقود المصادفة إلى شيء ألا وهو: إبعاد قوى الموت.

1- حظيرة سياج حاجز من قصب شد بعضه إلى بعض.

2- فواصل متحركة، حجاب، حاجز، ساتر.

3- في العمارة اليابانية التقليدية، فإن الشوجي shōji عبارة عن حاجز أو باب مصنوع من ورق الـ washi الشفاف المركب على شبكة من خشب، وهي عموماً أبواب زالقة.

4- التوكونوما Le tokonoma هو مخدع صغير أرضيته مرتفعة بواسطة الـ tatami بتاتامي حيث تعرض لوحات خط فنية وصور مطبوعة بأحجام مختلفة ونباتات وقطع فنية. إنه عنصر أساسي من التصميم الداخلي التقليدي في اليابان(واشيتسو).

صحيحٌ أن الشكل الدائري يبتر، لكن كي ينحفرَ بشكل أفضل، وما تفقده الأنا -أو النحن- من مساحة، تكسبه بالاستمرارية. كذلك يغدو من الطبيعي أن نحمي السورَ الذي يحمينا، ويطيل حياتنا ويديمنا. فتأبيد شخصية ما أو تخليدها، سواءٌ أكانتْ جماعيةً أم فرديةً، تُستحقّ من خلال تواضع حكيم: ألا يعدَّ الشخص كلّ مكان بيتاً له. فشكلُ فرنسا السداسي يبتر الكائن الفرنسي، كما يبتر قوس جزركم الكائن الياباني، لكن هذا الحصر يستحق بعض المرونة. من هنا يوجد، في آخر جزر المحيط الهادئ الصاعدة نحو الاستقلال[1]، من العلياء المخصصة للابتكار والحفاظ على ذاكرة قادمة. إذ إن الحاجز المعدني مثله مثل الطوق الذي تضربه الشرطة، والموضوع من أجل إحياء ذكرى ما، حول الضريح، أو حول الأكمة، أو حول العمود أو حول الشجرة المقدسة، ليس إلا تعبيراً عن إرادة الحياة. فلا نعيبَنّ كثيراً أولئك الحراس ولا طوق الأمن ولا المشربيات. يقول فاليري: «إن ما هو أكثر عمقاً لدى الإنسان، هو الجلد». إذ تتطلّب الحياة الجماعية كما الفردية فسحةً أو مساحة للفصل. التغليف يأتي أولاً، ثمّ يليه العمق. تماماً كما في الدوائر المالية.

المادة لا غلاف لها ولا جلد. والخلية فقط لها غشاء أو غلاف. فحقيقية النواة[2] لها غلافان: واحد حول النواة، وآخر حول الخلية. والجلد هو العضو الأوّلي في علم النشوء المتوالي للجلد[3]، إذ هو أوّل ما نتعرّف عليه لدى الجنين. فالكائن الحيّ يستطيع أن ينمو ويتشكل من خلال تمتعه بطبقة عازلة، لا يكون دورها في المنع بل في تنظيم التبادل بين الداخل والخارج. فلا توجد

1- جزيرة نورو في الياسيفيك.

2- جميع الخلايا التي تمتلك نواة حقيقية وغلافاً نووياً ذا جدار مضاعف تسمّى حقيقية النواة،حقيقيات النوى (بالإنجليزية: Eukaryote) هي مجموعة من الكائنات الحية ذات بنية خلوية معقدة، تتميز بأن المادة الجينية (بالإنجليزية: Genetic material) فيها تكون محصورة ضمن النواة المغلفة بغشاء. تضم حقيقيات النوى : النباتات والحيوانات والفطور. وهي بشكل عام متعددة الخلايا - إضافة إلى بعض الأنواع المصنفة كالأوليات (بالإنجليزية: Protista) (العديد منها يكون وحيد الخلية).

3- نظرية تقول إن الجنين يتكون بسلسلة من التشكلات المتعاقبة.

حشرة من دون كيراتين[1]، ولا شجرة من دون لحاء، ولا بذرة من دون غلاف ثمرة داخلي، ولا بويضة من دون طحرة، ولا برعم من دون جليدة[2]... إلخ.

النظام الحيوي هو سطح منطوٍ على نفسه، ونموذجه المثالي هو الشكل الكروي، فقاعة أو كرة، وقريتنا أو مسقط رأسنا، هو مادة بديلة بثلاثة أبعاد: غمد (قراب)، سنفة، أو صدفة. فنحن نعود كلّ مساء إلى هذا التجويف المناعي، عندما نتسلل تحت لحاف الريش هذا، ونغلق منافسنا. البقاء على قيد الحياة هو المحافظة على ثنيات المرء وطياته. وذلك من أجل تجنب تسطُّح الجسد، وتجنب صورة الجسد، القاتلة والمملة، والملساء المسطحة مثل اليد، من دون داخل، وخارج، وغشاء مخاطي بينهما.

إن النجاح التكاثري للمغاليق المخففة بعناية، التي نسميها ثقافات هي خاضعة لهذا الشرط. ونحن نفهم أنها تحرص على أسوارها قدر حرصها على بوليصة التأمين على الحياة. فالأمر منوطٌ بالبقاء على قيد الحياة. ملاذ المضطهدين، معبداً كان أم سفارةً، معبد البارحة أو اليوم في طيبة (الأقصر) كما في سانتياغو التشيلي، أليس هو الذي سينقذ حياتنا حين تكون الشرطة في إثرنا؟، والما ورائي (الحياة الأخرى) بالنسبة للمؤمن أليس هو الما قبلي مصرّفاً بصيغة المستقبل؟ أو ليستْ العودة بعد الممات إلى أحضان إبراهيم النبي أو مكان السلام والسعادة، هي عودة نحو الأحضان الأولية؟.قد سقطنا خارجاً مثلما سقط آدم وحواء من الجنة الأوّلية صوب البرد، والضجيج، الصخب، والضوء، وآلام الحاجة. لكن ثمة وسائل أخرى، أكثر بساطة كي يجعل المرء لنفسه داخلاً؛ إذ نستطيع الذهاب للتنزه في عطلة نهاية الأسبوع، في حديقة وطنية أي في جنة الفقراء (parc بالفرنسية القديمة تعني السور والحاجز). لا يوجد خلقٌ كثيرٌ بانتظار أورشليم السماوية، «المزدانة بسور من حجرٍ كحجر اليشب البلوري،،، التي قاس سورها مئةً وأربعاً وأربعين ذراعاً،، وكان لها اثنا

1- الكيراتين مادة بروتينية ليفية توجد في الطبقة الخارجية من جلد الإنسان وفي الشعر والأظافر.

2- قشرة واقية دقيقة جداً تغطي أدمة النبات.

عشر باباً»[1] (كما قال القديس يوحنا). أماكن لجوئنا واحتمائنا أقل طموحاً من أورشليم السماوية تلك. ويشكّل النوم - الموصوف على نحوٍ صحيح بالمرمِّم- جزءاً من ذلك: ففي كلّ مساء حين نطفئ ضوء المصباح، نعود إلى الرحم ونحاول تفادي الكارثة التي أقصتنا عن السور الإلهي (المقصود الجنة). ونحن مصيبون في ذلك. فأين كنّا أفضل حالاً من ذاك المكان؟ أفضل غذاء وسكنى ودفئاً ونظافة وحماية؟ أين كنّا أفضل من هذا البيت؟ بيت اللعبة الإسفنجي والسائل، الذي أمضينا فيه أوّل مئتين وسبعين يوماً من حياتنا؟ الذي هو خلية معلقة، ساكنة ومائية، مغذية ومضادّة للصدمات في الوقت ذاته؟

أيجبُ التنويه بذلك؟ الجلد فاصلٌ مقاوِم بين الجسد والعالم الخارجي، وهو أيضاً بعيدٌ من أن يكون ستارة كتيمة كبعد الحدود- الجديرة باسمها - من أن تكون حائطاً أو جداراً. يمنع الجدار المرور، أمّا الحدود فتنظمه. والقول عن حدود ما، بأنها مصفاة، هو أيضاً منحها ما تستحقه: فالحدود هي هنا من أجل الفلترة والتنقية. فالنظام الحيوي هو نظام حراري ديناميكي من التبادلات مع البيئة بأنواعها: الأرضية منها والبحرية والمجتمعية. تسمح المسام للجلد بالتنفس، مثلها مثل المرافئ والجزر والجسور والأنهار. وقد يكون هذا التعاقب بين الانقباض/ الانبساط، وبين المغلق / المفتوح، تناوباً بين دورات زمنية: طوال تاريخه، أقام الأرخبيل الياباني تناوباً على شتّى أجزائه؛ بعد قرونٍ من الإغلاق وقرونٍ من الانفتاح: إغلاقٌ للمرافئ في عهد سلالة توكوغاوا Tokugawa 1603 - 1867 [2]، ثم انفتاحٌ تحت عهد ميجي[3] (Meji

1- الترجمة مقتبسة من وصف يوحنا لأورشليم السماوية في رؤيا يوحنا.

2- حقبة التوكوغاوا (Tokugawa period 1603 - 1867)، وتدعى أيضاً حقبة إدو. هي الحقبة الأخيرة لليابان التقليدي، حقبة السلام الداخلي والاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي تحت حكم شوغونات الذي أسّسه توكوغاوا لياسو .

3- حقبة الميجي The Meiji period. هي أيضاً عصر الميجي الذي امتدّ من 1868 وحتّى عام 1912. وتمثّل هذه الحقبة النصف الأوّل من امبراطورية اليابان حيث انتقل فيها المجتمع الياباني من الاقطاعيات المنعزلة إلى شكله الحديث. وقد حصلت تغيرات أساسية في بنية المجتمع والسياسة الداخلية والاقتصاد والجيش والعلاقات الخارجية.

1912 - 1868). وقد أدّى البحر - متأثراً بهذه الازدواجية- دور الجدار والباب في الوقت ذاته؛ كان حاجزاً عند الاستقبال، وحاضاً على التبادل، فاضطلعَ في هذه الحالة بوظيفة المنخل أو السداد الذي ينفتح تلقائياً عند ازدياد الضغط أيّ الصمام. تحتاج الإقامة الطيبة الجيدة إلى أيام أو إلى عثرات. الفتحات في الجدار: باب السرّ[1]، وكوّة الرمي في الحصون المنيعة، متاهات للنفاذ إلى الغرفة التي يوضع فيها الأموات، عنق الرحم بالنسبة للقوقعة الأمومية (صدفة). لتابوت العهد مائدته، كما لحقّة القربان صينيتها. ونستطيع أن نأخذ منها بقدر ما نشاء. محفوظاً في صندوق خشبي، أو مغلّفاً بقماشة، أو بمعطفٍ ثمين، أو مخبأ وراء ستارة، فإن سفر التوراة أي الشيء الأكثر قدسيّةً في ثقافة الكنيس، هو علامة للقراءة في تواريخ ومناسبات محدّدة. فحتى في معبد أورشليم، يفتح قدس الأقداس مرّة واحدة في العام أمام رئيس الكهنة. كذلك في قرية كومبريCombray[2]، حيث الغرفة - المدفن للخالة ليوني، تفتح مرّة واحدة أمام مارسيل الصغير القلق، كاظماً غيظه على مضض في الصالون مثل لاوي[3] أمام مدخل الكنيس. الحضن ليس سجناً: وليس إغلاقاً ولا عزلاً. لا تموت قطع الكريستال ولا المعادن، فهذه ميزة محفوظة للنباتات والحيوانات. بيد أن ثمن ميزة الغلاف هذه، تُدفع من خلال ضررٍ منغصٍ هو الموت. وإن كان ثمة تعبير يجهله عالم الكائنات الحيّة فهو: لا «غالبٍ مقابل غالب»، خدعة اقتصادية فظة. وتغدو ترجمتها في هذه الحالة مثل التفتح من دون التعرض للذبول. فحين نتقدم في العمر ونشيخ، تصير الطبقة القرنية للأدمة خشنةً ناتئةً وسميكةً: هذا هو قرت

1- باب خفي للنجاة في حصن أو قلعة.

2- Combray كومبراي، قرية خيالية في مؤلف مارسيل بروست البحث عن الزمن الضائع مستوحاة من قرية طفولته إليه في منطقة الأور واللوار. ولقد أطلق على هذه القرية لاحقاً إليه كومبراي إكراماً له. وكومبراي هو عنوان القسم الأول من المجلد الأول للبحث عن الزمن الضائع بعنوان من جهة بيت سوان.

3- عضو من قبيلة اللاوي لدى الإسرائيليين مهمته خدمة المعبد.

الجلد[1] (التقرّن)، تيبسٌ حتمي لا مهرب منه، لكنه أفضل بما لا يقاس من الكشط أو السلخ.

حين أرى، في طوكيو بالذات، كيف تخلعون أحذيتكم في الرواق أو البهو، وأنتم ذاهبون إلى السكر والثمالة، وتتركون النجاسة عند باب المشارب والخمارات والمطاعم. وأرى كيف تغطون أفواهكم في الطريق بكمامات ضدّ التلوث. حين أعيد في مدينة كيوتو[2] اكتشاف فنّكم في التغلغل والتسرّب: حين أقرأ لدى أوغوستان بيرك[3] في كتابه «المتوحش والاصطناع» أن في اليابان «يثير الحنين إلى الوطن بشدّة حنين العودة إلى الأصل، إلى القرية في غلافها شبه الجنيني (الاسم المألوف للفظ القرية هو fukuro فوكورو[4]، كيس، جيب، التي تبطن أيضاً معنى الولادة ضمن مجموعة ما، مثلما تبطن معنى الأم). لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير - أبعد من هموم النظافة الشخصية، ورغماً عن التراجع الديمغرافي في عدد السكان - في أن العدمية لا تتربص بكم. فإله الموت Thanatos تاناتوس لن يتغلب على Eros إيروس إله الحب. إذاً وفقاً لمقولة كزافييه بيشا[5]: «الحياة هي مجموعة الوظائف التي تقاوم الموت». ويشكّل المطعم والمسكن جزءاً من ذلك، كما بالقدر نفسه يفعل التناسل الثابت الخصب. ألاحظ من جانب آخر، أن للممر المغطى فضيلة في جعل المدينة إباحيةً إيروتيكيةً. وكما ذكّرنا، كاتبان سرياليان بمدينتي باريس

1- مرض جلدي متميز بنمو نسيج قرني.

2- تقع مدينة كيوتو Kyoto في وسط جزيرة هونشو في اليابان. يبلغ عدد سكانها قرابة مليون ونصف.

3- Augustin Berque أوغوستان بيرك من مواليد الرباط في عام 1942 وهو جغرافي ومستشرق وفيلسوف فرنسي ابن المستعرب جاك بيرك (1910-1995) ولوسي ليساك (1909-2000) فنانة تشكيلية. تم انتخابه في عام 1979 مدير دراسات في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية وبقي في منصبه حتى تقاعده في عام 2011.

4- هذا ما يفسر اسم فوكورو fukuro الذي يعني حقيبة.

5- Marie François Bichat ماري فرانسوا بيشا (1771- 1802) طبيب وعالم أحياء وفيزياء فرنسي. من أعماله: أبحاث فيزيائية حول الحياة والموت.

ونانت قائلين عنهما إنهما: ممر الأوبرا[1]، وممر بوميراي Pommeraye[2]: «وسواس هوس بالثقوب والسراديب السرّية، المظلمة الظليلة، والدافئة، التي تطلّ على المتاهة العميقة، وعلى العلائم الحميمية للجسد المديني الواسع». بالنسبة لجوليان غراك [3]، هي متاهةٌ شهوانية، أمّا بالنسبة لأراغون[4]، حيث وميض الضوء الأخضر المزرق «ينبع من وضوح فجائي تحت تنورة نرفعها على ساقٍ تتكشف».

كلّ تكثّف للإنسانية، له طابعه، ميسمه، وأسلحته، لا بل توقيعه الخاص. فمن ختم الأوكيو ukiyoe[5] وصولاً إلى كتّاب المانغا manga[6]، مروراً بفيلم «إمبراطورية الحواس»[7]، فإن الإيروتيكية تشكّل بدورها جزءاً من الطابع الخاص لليابان. مثلها مثل رياضة السومو، والحوت، والتونة الحمراء،

1- ممر الأوبرا كان طريقاً صوب باريس بين عامي 1822 و1925.

2- ممر بوماري Le passage Pommeraye عبارة عن مخزن ضخم في وسط مدينة نانت الفرنسية. تم بناؤه بين عامي -1841 1843. وقد اعتبر معلماً تاريخياً في عام 1976.

3- جوليان غراك Julien Gracq واسمه الأصلي لويس بواريه، ولد في سان فلوران لو فيي عام 1910، وتوفي في أنغر عام 2007. كاتب فرنسي أثارت روايته الأولى «في قصر أرغول» انتباه مؤسس السريالية أندريه بروتون. عرف الجمهور الواسع جوليان حين رفض جائزة الغونكور عام 1951 عن كتابه الشهير ضفة الرمال المتحركة.

4- لويس أراغون Louis Aragon شاعر وروائي وصحفي فرنسي (-1897 1982)، ولد في نويي سور سين. اشتهر أراغون بالتزامه بالحزب الشيوعي الفرنسي. وكان رفقة اندريه بروتون وبول إيلوار وفيليب سوبو، من مؤسسي حركة الدادائية البارسية والحركة السريالية. وقد قام بغناء قصائده أشهر المغنين الفرنسيين منهم ليو فيريه، وجورج براسنس

5- L'ukiyo-e هو مصطلح ياباني ويعني «صورة العالم العائم». حركة فنية يابانية ترجع إلى حقبة إدو (1603-1868)، وتشتمل فضلاً عن الرسومات الشعبية والحكايا الشفهية على أختام يابانية محفورة على الخشب. وكانت مواضيع الحركة جديدة بالنسبة لعصرها، إذ كانت تدور حول مركز اهتمام الطبقة البورجوازية: النساء الجميلات، والمحظيات الشهيرات، والمناظر الإباحية وغيرها.

6- المانغا manga عبارة عن رسوم متسلسلة يابانية. لفظ مانغا يستعمل غالباً بطريقة غير دقيقة غير صحيحة من أجل الإشارة إلى سلسلة رسومات غير يابانية تحترم معايير النتاج الشعبي الياباني أو من أجل تسمية منتجات بصرية أخرى تذكر ببعض الرسومات المتسلسلة.

7- امبراطورية الحواس فيلم فرنسي ياباني مشترك (1976) لـ ناجيزا أوشيما، Nagisa Oshima.

والقيادة على اليسار. فلكلّ ثقافة دمغتها. وللثقافات الأخرى أيضاً دمغاتها مثل: اللحية، البقرة المقدسة، الفقمة في الصحن[1]، الجراب الخاص بالعضو المذكر[2]، أو [3] komboloï السبحة اليونانية الممسوكة بالسبابة.

وطالما أن الكائن البشري يسخر من الوعي، فإن المطلوب من أدق تفصيل في الزي، ومن أدق تصرّف، هو الاستمرار - من دون انتباه- في التلمس أو بالأحرى، تصليح الشقّ، وإعادة نفخ الفقاعة الأصلية خشية تسطحها، وذلك من خلال شتى الخطوات الجانبية وشتّى أنواع البذخ الصغير المستمر.

ومن أجل ألا نفقد القوام - حتى لو غيّرنا مسارَ الطريق- نستطيع أن نشك في أن رهباننا وراهباتنا المتوحدات الكاثوليك، يتذوقون كل أفراح الجنة. لكن ليس السبب في ذلك أن دير الليجوجيه Ligugé[4] الذي تأسس عام 361، يأوي إلى اليوم جماعة رهبانيّة.. فإن هذا العمر المديد - الذي لا يوجد مثيل له لدى جماعاتنا الدينية ومؤسساتنا المكرّسة للعبادة - يدين كثيراً من دون شك إلى الظلال وإلى غموض صوامع الرهبان، وهي مربعاتٌ صغيرة في وسط المتاهة. وإلى الحفاظ من طرف كلّ جماعة على هذه العلامات المميزة، إذ ينساب لونٌ مماثل وتُتلى صلاة الصبح في ساعة معينة. لا توجد جماعة تغفل إعلان شارات انتمائها كما لو أنها جالبة للحظ، حين يكون الأمر متعلّقاً بتوقع طول الحياة، أو حين يرغب مستعمرٌ أو غازٍ ما في أن يغير من شكلها أو يلغيها. وينطبق الأمر ذاته على الحياة الدبلوماسية، فلا يمكن المس بالحدود مثلما لا يمكن المس بقدسيّة المعاهدات (pacta sunt servanda[5]).فهذه

1- تؤكل الفقمة في أرخبيل لا مادلين الواقع شرق كندا.

2- Koteka اللباس التقليدي في غينيا الجديدة وفي جزء من محيط أوقيانوس. هو عبارة عن محفظة لعضو الرجل، تحيط به ومن الممكن إطالتها حتّى المتر تقريبا .

3- Le komboloï الكومبولوا مسبحة يونانية خاصّة بالرجال.

4- الليوغوجيه Ligugé بلدة فرنسية تشتهر خصوصاً بدير القديس مارتان وهو من أقدم الأديرة الغربية.

5- تعبير باللاتينية يعني: يجب حفظ العهود واحترامها.

الطلاسم القانونية هي تضرّع وابتهال يهدف بالقدر ذاته إلى أمرين: إلى معاودة صعود المنحدر، منحدر كلّ شيء، وإلى السيطرة على الميلان والخسف الذي يسببه الزمن للاتفاقات التي مضت وانقضت.

تغيّر مفهوم الحدود شكلاً ومضموناً عبر القرون، فنحن لا نستطيع بالطبع إسقاط رسم حدود دولنا الوطنية الحالية على تعقيدات التخوم الغابرة. وهي ليست أحادية المعنى تماماً، إذ يوجد في كل لغة، أكثر من لفظ للدلالة عليها: فلفظ limes باللاتينية، لا يعني لفظ finis «النهاية»، ولا لفظ bor-der بالإنجليزية، الذي يعني فاصلاً بسيطاً بين دولتين، المختلف بدوره عن لفظ الحدود، أي الفاصل المؤقت بين فضاءٍ متمدّن ومنطقة همجيةً يجبُ غزوها. فخطوط الحدود يمكن أن تكون شرائط من الأرض مرنةً ممطوطة إلى حدّ ما؛ وثمة أكثر من نظام حدودي قيد التطبيق. ففي فرنسا، يعود تثبيت الحدود الخطوطية المستمرة، إلى حقبة الانتقال من الدولة الإقطاعية إلى الدولة الإقليمية. صنعنا أمراً حسناً كبيراً. وكان لهذا أثرٌ جيدٌ كبيرٌ. فحتى القرن السادس عشر، لم يكن بمقدور أي ملك من ملوك فرنسا تصوّرَ حدود مملكته في غياب الخرائط. أما لويس الرابع عشر، الذي تعلّم الجغرافيا من كتاب «تعليقات على حروب بلاد الغال»، ليوليوس قيصر، فلم يكن يفاوض على الحدود الإقليمية: بل كان يطالب بحقوق وراثية سلالية. لكن بقيت «الحلقة المميزة» غير قابلة للمعالجة. وإذ فطن ملكنا اللطيف هنري الرابع، إلى أننا لا نزيل حدوداً ونهدمها إلا بإحلال حدود أخرى محلها، لردم الهوّة بين البروتستانت والكاثوليك، فقد قام بتأسيس مجلس من الجغرافيين في الدولة، من أجل وضع الخريطة وتثبيت حدود المملكة. كذلك، عرفت باريس خلال ثمانية قرون، ستة من الأسوار المتتابعة، من السور الخاص بفيليب أوغوست Philippe Au-guste[1] وصولاً إلى المتحلق المحيط بالمدينة (الطريق الخارجي)، فما كان يتمّ

1- فيليب الثاني أو فيليب أوغوست(Philippe II - Philippe Auguste 1165 - 1223) هو الملك السابع من ساسة الكابيسيان. الابن الوريث للويس السابع وأديل دو شامبانيا. يعد فيليب واحداً من أكثر الملوك

هدم سورٍ إلا ويُبنى مكانه سور آخر. وسيختفي المتحلّق بدوره، باعتباره خاتماً سحرياً نهائياً، لكن باريس الكبرى، باريس المستقبل، ستكون بدورها، ولا نشك في ذلك - داخل أسوار جديدة (سيتحسن فيها نمط العيش، وسنصل إليها بيسرٍ أكثر مما ننصل إلى لوس أنجلوس وطوكيو).

تصمد الحدود بتحولاتها، وتبقى بتغيراتها. هي لا تقهر، لأنه من الجيد التفكير بها، والسبب هو أن كلّ تنظيم رمزي لفوضى ما، أو لمزيج مشوش، يمرّ في كل مرة وفي كل مجال عبر لعبة التعارضات: ين / يان، ذكر/ أنثى، بارد/ ساخن، أرض/ سماء، لكن أيضاً: تقليدية/ باروكية، أبولونوي Appolon (إله الجمال والحب)/ dionisiaque ديونيزيوسي، يمين/ يسار، إلخ. فهذا هو السبب الذي من أجله يوجد دوماً حدّ أخير إن لم تكن توجد حدود أبدية.

على سبيل المثال حدود بين الحياة والموت، فليس توقف القلب فقط - ودورة السوائل؛ والهواء والدم في الجسد- هو الذي يسيطر بل صورة الدماغ على الشاشة. فكل ما فعله تقدّم الطبّ هو تغيير محل الحدود بين الحياة والموت. لن ننتهي أبداً من مسألة الحدود لأنها متلازمة مع قاعدة الحق، وحتى حين تتخذ الحدود الشكلَ الكئيب المأتمي لنهر الستيكس [1]، أو لبحار شارون [2] Charon الذي يمرّر الموتى نحو الضفة الثانية من النهر، فإنها جديرة بالحياة وتستحق العيش. إذ إنّ الرغبة القوية بالبقاء والعيش، تضع الحدود ضمن برنامج يتبعه كل ما يتحرك ويتنفس. هل تبغي لافتة «من دون حدود» محو مساوئ وجودنا في الحياة؟، إن استطاع الكائن البشري والحد أن يحدثا معاً، والواحد عبر الآخر، فهل سيكون طموحهما المشترك في

المحبوبين في القرون الوسطى ليس فقط بسبب طول فترة حكمه، وإنما بسبب انتصاراته العسكرية المهمة والتقدم الأساسي من أجل إرساء السلطة الملكية وإنهاء سلطة العصر الإقطاعي.

1- الستيكس Styx هو النهر الذي يوصل إلى جهنم في الميثيولوجيا الإغريقية ويفصل بين الحياة والموت .

2- في الميثيولوجيا الإغريقية الشارون أو الكارون Charon ou Caron. هو «بحّار الجحيم» هو ابن إيريب (الظلمات) والنيكس (الليل). كان دوره أن ينقل على مركبه - متقاضيا رسم عبور- الظلال الهاربة للموتى عبر نهر أكيرون .

العمق، هو التخلي؟ هل هو مرض الغنى؟ هل هو احتشاءُ قلب حضارة غدتْ حضارة متاحف؟ هل هي أوروبا رجل الكوكب الأرضي المريض؟. فلنأمل ألا يحدث شيء من هذا. سيكون ذلك مؤسفاً جداً، لهذه الكرة الكبيرة ذات الألوان المتعددة، والجذلى بتعدّد لغاتها، الكرة التي يجب تعلّم التيه والضياع فيها كلّ يوم، مصادفةً، ونرغب فعلاً أن يكون بمقدورنا الاستمرار في التخبط.

أعشاش وكوى، العودة
(3)

لا تتشابه أحياء باريس، فلا حيَّ يشبه حيّاً آخر. يعدّ مسقط رأسي ثمانين حياً على الورق (أربعة أحياء في كل دائرة، وتوجد عشرون دائرة) لكن، نادراً ما يتطابق هذا النسيج المتواصل كالباتشوورك، أو مجموعة الرقع، مع تقسيماتنا وتربيعاتنا الإدارية. لكلّ حيّ منها طرازه الخاص، ورجاله المهمون المشهورون سواءٌ خلّدتهم تماثيل الجص، أو اللوحات المعدنية التذكاريّة، كما لكلّ كبرياؤه الخاصّ، وملابسه، ولهجته ولكنته، ويؤلّف هذا الفولكلور كلّه، والمترّسب عبر العصور، ما هو أكثر من بطاقة بريدية فحسب: هناك تواطؤ سريّ خفيّ تحت الجلد. ثمة أحياء أو دوائر، تقتضي وجود مهنة بعينها. وجميعها له سمة عائلية.

فمن حيّ بيلفيل Belleville، أو من حيّ سانتييه Sentier، أو من حي بوت أو كاي Butte-aux-cailles أو من حي فوبورغ سان جرمان fau-bourg Saint-Germain، حيث يؤدي حرف الجر (de) هنا، دوراً تمييزياً حصرياً ومشيراً إلى كرم المحتد في الوقت ذاته. يوجد أيضاً بمحاذاة هذه الديار، أو بما ينخر فيها، أكثر فأكثر: اللا-مكان، والشخص الذي لا نميّزه، هي

ملاذات مفيدة وضرورية، لكنها لا تتمتع بميزات خاصّة ولا بملامح محدّدة: السوبر ماركت، المطارات، محطات الوقود، المرائب، الأوتوسترادات السريعة، محطات القطارات ومراكز دفع رسوم العبور على الطرق السريعة. ثمة طائشون استمدوا من هذا، ارهاصاً لوجود كوكب هوب[1]،hub: مطارٌ فسيحٌ قفرٌ، يصل ما بين كوكب المريخ وقمر الباندورا Pandora[2]، فيه مخلوقات ذات قائمتين محلقتين، لا تحتاج إلى وضع قدميها في أي مكان. مستهلكٌ متنقلٌ جواً، مدينةٌ طائرةٌ بحجم الكوكب: استمرّت فكرة الطيران التحليق عبر الزمن، مثلها مثل فكرة الاقتصاد المنعدم الجاذبية التي رافقتها. لئن كان مفيداً وضع العالم كلّه ضمن شبكة متصلة، فإن هذا لا يعني أننا نستطيع السكنى في هذه الشبكة كما لو أنها هي العالم ذاته. من المستحيل جعل مكان العبور مكاناً صالحاً للإقامة، مع عدم وجود أو بغياب ما هو إزاءه. إذ لا ضدّ بالمقابل. فكيف يمكن للمرء أن يثبّت شخصيته من دون أن يعترض ويقاوم؟. إنّ جماعة لا خارج لها يعترف بها أو يوظفها، لن يكون من علّةٍ لوجودها، شأنها شأن أمة وحيدة في العالم ترى كيف يتلاشى نشيدها الوطني، وفريقها في كرة القدم أو الكريكت، وصولاً إلى اللغة لغتها. فالشخصية الاعتبارية إما أن يكون لها محيط أو لا محيط لها. من هنا يأتي تعبير «المجتمع الدولي» إذ ليس له مكان محدد. هذا اللدن الرخو الحي الميت، يبقى صيغةً جوفاء، ذريعة بلاغية بيدي مجلس الإدارة الغربي (حكومة المديرين بعد الثورة الفرنسية)، الذي أعطى نفسه واستأثر، إلى الآن بالحق في الانتداب. ستسير الأمور بطريقة مختلفة عندما يأتي مخلوق فضائي، رجلٌ طيبٌ أخضر، بألف رجل وبخرطوم طويل يهبط على

1- HUB رصيف محطة لتغير وسيلة التنقل، ويشير إلى مفترق طرق أو عقدة أو نقطة مركزية لشبكة مواصلات. ويتيح من خلال تركيزه أكبر عدد من وسائل، تبديل وجهات السير، ويستخدم مفهوم الـ hub في مجال النقل الجوي.

2- القمر الرابع لكوكب زحل، الرابع في البعد عن الكوكب.

تقاطع طرق الجينزاGinza [1]، أو في ساحة الكونكورد. تستطيع اللاشخصية الاعتبارية التي هي الإنسانية بألف لام التعريف، عند مواجهة كائن فضائي من مجرّة أخرى، أن تبقينا أحياء دافئين لأنها عندئذ ستأخذ شكلاً وتتجسّد بطريقة مناقضة بالتعارض مع مضمون معين. فحين تستطيع الثدييات البشرية أن تبصر بعينيها، تلك الغرابة القادمة من الخارج، ستعرف عندها ما الذي عليها مقاومته والتصدي له، جنباً إلى جنب مع أترابها من دون استثناء، وذلك من أجل الحفاظ على شخصيّتها الخاصة.

وفي هذه المرحلة، فإن الأسترو فيزياء (الفيزياء الفلكية) لا تعدنا بشيء مماثل. فبانتظار معجزة قد تكون الأخوة غير المحدودة في مواجهة هذه الكائنات الفضائية، فلنرفع الأختام، ولنكسر القوانين السائدة ولنحطم الأقفال، ولنتواصل، ولننقر، ولنستعمل التويتر ونغرّد، ولنتبادل الرسائل الالكترونية على أفضل وجه. ولكن لا نظنّ أن تواصلاً ما يعادل التواطؤ. فلكل تقارب سواءٌ أكان مدينياً أم روحياً، لابد من أجهزة تقنية، لكن ثمة فرق كبير بين ما هو تواصلي وما هو اجتماعي. الشيء المفيد (جهاز أو آلة) يغطي الكوكب بلمحة بصر، لكنه ينحط عن مقامه بلمحة بصر كذلك. أما الميسم الثقافي فلا يحدث جلبة، لكنه يعبر الزمن. إذ حين اختار مسكناً في مكان ما، سواء أكان ذلك في الكتابة أم في النظام الأسري أم في نمط الحياة أم في آداب المائدة، فإنه يقيم ويدوم. وبقاؤه هذا هو الذي يتيح له طول الإقامة والسكنى. الطرق، السكك الحديدية، الماء، الغاز، الكهرباء، التليفون، الإنترنت: كلّها لا تأبه للحدود بين المناطق، ولا للتضاريس، ولا للوهاد، ولا لشبكات الاتصال البيني بين المواقع، بل هي تميل لأن تجعل منها محض نقاط بسيطة للالتقاء والعبور. الأمر الذي يعني، أن الشبكي لم يلقِ تحية الوداع على الوطني المحلي. توجد دائماً خصومة بين عبقرية المكان (هندسة المكان) واتساع الشبكات، بين زارع كروم العنب

1- الجينزاGinza حي من أحياء طوكيو، يشتهر بمتاجره الفخمة ومحلاته الراقية ومطاعمه هو من أكثر أحياء التسوّق فخامة في العالم.

والقطار الفائق السرعة TGV. إذ رأينا إلى أية درجة يطفح هذا الكوكب المتخم بالكابلات بوجود أشخاص غير متكيفين مع واقعهم قصداً، وبعد هذا، نقول لأنفسنا إن القرويين يدافعون عن أنفسهم بشكل لا بأس به.

هؤلاء الأشخاص غير المتكيفين تتجاهلهم مناظيرنا الفلكيّة. وعلى الصور التي تلتقطها الناسا (وكالة الفضاء الأميركية) تختفي خارطة اللغات. وينطبق الأمر كذلك، على شاشة البلازما الكبيرة لغوغل بليكسGoogleplex، في المقر المركزي الرئيسي لشركة غوغل حيث تُنقر مئات الملايين من النقرات على خارطة العالم. فكل ما هو واقعي وحقيقي، غير مشاهد وغير مرئي. ويتيح القمر الاصطناعي الجيو- محطي[1] لنا رؤيةَ الكوكب ككلّ كامل، لكن خارج المقياس البشري. مصورٌ من بعد ستة وثلاثين ألف كيلومتر علوا، ما يزال أزرقنا البرتقالي[2]، يحتفظ بالمظهر نفسه منذ ملايين السنين وسيبقى كذلك حتى عند زوال الجنس البشري الطفيلي. لقد محت هذه الجغرافيا اللا إنسانية تاريخنا. فلم يعد من آلهة، ولا من وديان ولا من أفكار مرمّزة[3]، إذ إن النظر من هذا العلو- الذي لا قاع له- كمثل نظر الاستراتيجيين في غرفة أو أمام شاشة- تعمي نفسها بذلك، والسبب أنها تهمل الأفق الداخلي للإنسان ذي القامتين. يذيب هذا المنظور زمن البشر في فضاء الأشياء. فغيوم الرماد، انبعاثات الملوثات، مثلها مثل رواد الفضاء الذين يسخرون من الدول المتناهية في الصغر (الميكرو دول)، ومن الأوساط المتناهية في الصغر (الميكرو أوساط) حيث تنمو النبتة البشرية. ولكن، فلننظر كيف يُحسّن المقياسُ الكبير من وضع المقاييس الصغيرة. كما لو أن الاتساع الرائع للاقتصاد يرفع جاذبية ما هو خارج التبادل. فنحن لم نتحدث قبلاً وبهذا القدر عن التنوع

1- مصاحب للدورة الأرضية أي الذي يدور حول الأرض في مدارها.

2- يشير ريجيس دوبريه إلى الكوكب الأرضي مستعيراً وصف بول إيلوار الأرض زرقاء كبرتقالة.

3- كتابة رسم كما لدى الصينيين واليابانيين والفراعنة أيّ رسم شيء أو صوت يمثل الكلمة الدالة على الفكرة.

الحيوي، إلا عندما انتصر التماثل الأحادي الجانب. ألم يشيدُ الهوت دوغ بجبنة النورماندي الكاممبيرcamembert ؟ ألم ترفع الطرق السريعة من شأن الدروب؟ ألم يُعل البرج الزجاجي من قيمة العارضة الخشبية البارزة؟ هذا هو مفعول الثبيتة الصغيرة[1]، ومفعول لعبة البومرانغ [2]. (لعبة الكيد المرتّد)

في البدء، تتغلب الشبكة على الموقع، إلى أن ترفعه عالياً من ثمّ بصدمةٍ مرتدّة، ويكون هذا أحياناً لغير مصلحته. فهذه الصدمة المرتدة، قد تكون عقابَ اللا مكان، عقاب الـou-topos[3] (الأوتوبيا)، عقاب أي مكان عزيز على قلب القائمين على السعادة الكونية. تجنب أنصار الاشتراكية دون ضفاف، مسألة الحدود، باعتبارها دليلاً على المحدودية، ووصمةً في عدم الكمال. من هنا، ينبع إيثارهم للجزر أو للصحارى غير المأهولة، حيث حلم أفلاطون وتوماس مور[4]Thomas More، واتيين كابيهÉtienne Cabet[5]، وروبرت أوون،Robert Owen[6]، وكثيرين غيرهم، بصناعة الرجل الجديد. فالناسك يتجنب السؤال الحتمي الوبيل. إذ لا يوجد جيران، ولا يوجد شيء للتفاوض حوله أو عليه، هو وحيد في العالم.

1- ثبيتة صغيرة، حمالة سقف من خشب أو سواه.

2- عنصر معماري يستعمل في السقف المستعار.

3- Utopia مكان مثالي رائع، خاصّة في ما يتعلق بجوانبه الاجتماعية والسياسية والأخلاقية. وقد كان توماس مور هو الذي ابتكر هذه الكلمة من اليونانية حيث ou تعني اللا وtopos تعني المكان.

4- توماس مور (1478 Thomas More-1535)، رجل قانون ومؤرخ وفيلسوف وعالم أنسني ولاهوتي ورجل سياسة إنجليزي، ساهم بزخم في الفكر الذي طبع عصره، كما في الفلسفية الأنسنية. سمي سفيراً فوق العادة ثم مستشاراً ملكياً لهنري الثامن. تعرض للسجن ثم حكم عليه بالاعدام باعتباره خائناً. طوب سير توماس مور من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عام 1886، وأضحى قديساً عام 1935.

5- إتيين كابيه (1788 .Étienne Cabet-1856)، منظر سياسي فرنسي، صنفه كارل ماركس وفريديريك أنجلز بين الاشتراكيين الطوباويين. ألّف إتيين عام 1840 كتاباً بعنوان «رحلة إلى إيكاريا»، يصف فيه المدينة النموذجية.

6- روبرت أوين (1771 Robert Owen-1858)، اشتراكي إصلاحي من الغال. ويعد أوين الأب المؤسس للحركة التعاونية. من مؤلفاته: اقتراحات أساسية للنظام الاجتماعي، عريضة إلى المجلس الوطني الفرنسي.

فنشيد «الأممية ستكون الجنس البشري»[1] (النشيد الخاص بالاشتراكية) يبدأ بـ (معنوياً فحوى النشيد) «هنا أو هناك لا يهم» وينتهي بـ «خارج الحزب، ينعدم الخلاص». والنتيجة: بيوت لا فرح ولا سعادة فيها، تنتظر الكوليما[2] (معاقل منطقة الكوليما). الـ «العالم الشركة»، (أي الرأسمالية العالمية)، الذي ما أن حرّكه النفَس النيو ليبرالي، حتّى انزلق من صورة الأجنبي (أو الغريب) الواجب استيعابه، إلى صورة عامل الهجرة (المهاجر) الذي يجب طرده خارج الحدود.

ففي غابتنا التي تدّعي أنها تتوق لأن تكون إدارةً عالميةً، تتربص كاميرا المراقبة بالمنحرف، وتتقرّن الأدمة، ويغدو التقرّن درعاً صلباً. ويصبح شيطاناً من ادعّى أنه ملاك (باسكال). ويزول الممر المباح لصالح الممر المحرّم وتتحول مدينة الغوطا Ghota[3] إلى غيتو. فـ«رقاص الضغط» [4]الطليق لم يعد يطيق الحدود؛ فقد مايز كما طابَ له بين الأجنبي الدخيل والمواطن الأصلي. بين المجمعات العمرانية Gated communities ومدن الصفيح. ما بين سكان الولايات المتحدة وسكان المكسيك. بين الإسبانيين والمغاربة. بين سكان حي

1- الإنترناسيونال L'Internationale أو الأممية هو نشيد ثوري كتب كلماته عام 1871 أوجين بوتييه، ولحنّه بيير دوجيتير عام 1888. ترجم النشيد للغات عديدة، وهو بمثابة النشيد الرمزي للنضال الاجتماعي عبر العالم كلّه، حتّى انه كان النشيد الوطني للاتحاد السوفييتي حتّى عام 1944.

2- أضحت الكوليما Kolyma تحت حكم جوزيف ستالين أكثر المناطق شهرة في معسكر الغولاغ. إذ قضى مليون عامل أو أكثر في تلك المنطقة وفي الكوليما: في مناجم الذهب، وأعمال البناء وغيرها بين عامي 1932 - 1954. ألهمت سمعة الكوليما الروائي ألكسندر سولجنتسين روايته «أرخبيل الغولاغ» التي وصف فيها الكليما باعتبارها «قطب البرد والقسوة» في النظام الغولاغي.

3- Gotha أدت الغوطا دوراً مهماً في حركة العمال الألمانيين. فقد نشأ الحزب الاشتراكي الألماني في الغوطا عام 1875 منبثقاً عن تنظيمين: «العمال الاشتراكيون الديموقراطيون» و«الجمعية العامة للعمال الألمانيين». وقد انتقد كارل ماركس بقوّة برنامج الغوطا في كتابه:نقد في برنامج الغوطا.

4- (تمثال صغير معلق في كرة مجوفة يهبط ويصعد في وعاء مملوء ماء حسب الضغط على الغشاء المطاط الذي يغطي الوعاء).

نويي [1]Neuilly البورجوازي وسكان حي أوبير فيلليه [2]Aubervilliers الشعبي. أن نرى كيف تبرز أنظمة الأبارتهايد في قلب «القرية الكونية»، يعني أن نرى أصحاب المال برخائهم وثرائهم من جهة، ونرى من جهة أخرى الفقر والبؤس، وتحوّل القرى الجماعية (الفالانستيرية[3]) إلى سجون، ونرى الأممية البروليتارية تمسي شوفينية حمراء.

إنها لخيبة أمل!. لم يتوقع متنبؤوننا بأن انحسار الأوطان، وزوال الحروب على الطريقة القديمة سيعيدان إطلاق الحاجة إلى الفخر والاندماج الجماعيين ولو بشكلٍ مختلف. كثيرةٌ هي هستيريات التحوّل والاهتداء. وأكثرها وروداً وحضوراً؛ هي الرياضة، لأنها تتسم بالمنافسة. فالفريق الوطني لكرة القدم هو بديل مشرّف للجيش القديم. ووظيفته أن يحرس حدود الجمهوريات الكروية، فيُرفع إلى مصاف الأبطال أو يتهم وذلك وفقاً لحاله؛ إن فشل أم لم يفشل. وفضلاً عن الفريق الوطني، يوجد أيضاً، وفي كل مكان تسري الحياة فيه: الدين. فبعد أن تخرب إقامته على الأرض، يبحث الإنسان المهجّر عن إقامة أخرى في السماء. كانت مدارس الفلسفة الأولى في الهيلاد[4] (في بلاد الإغريق) تربط طلابها بحيٍ أو بجنينة أو بحديقة كبيرة: أما الحداثيون الآن، فتشبثوا بعقيدةٍ ما تعويضاً عن الخميلة الضائعة المفقودة. وقبل أن تتحول سلالة أفلاطون إلى المذهب الأفلاطوني،كانت أكاديميته عبارة عن ضاحية فخّارين مسوّرة بأشجار الدلب. وقبل الستوييسم [5]stoïcisme أي المدرسة

1- Neuilly: حي باريسي

2- أوبيرفيلييه Aubervilliers بلدة فرنسية في ضواحي باريس القريبة. تتسم البلدة بإرثها الصناعي والعمالي.

3-تجمع إنتاجي دعا إلى إقامته الفيلسوف الاشتراكي فورييه وفيه يعيش العمال عيشة مشتركة.

4- اسم منطقة يونانية Hellade

5- Le stoïcisme الرواقية مدرسة فلسفية في اليونان القديمة أنشأها زينون دو ستيون عام -301 ق.م. استمّر هذا التيار الفلسفي الهلنستي عبر العصور. وتحث هذه الفلسفة على ممارسة تمارين التأمل التي تؤدّي إلى العيش بتوافق مع الطبيعة والعقل من أجل الوصول إلى الحكمة والسعادة اللتين تفضيان إلى الطمأنينة.

الرواقية) كان هناك الرواق، وقبل الأبيقورية، كانت هناك الحديقة. ماذا فعلنا؟ قمنا بقطع أشجار الدلب، واستبدلنا الباحة ذات الأعمدة بتخوم من ورق؛ الماركسية، الشخصانية، الإسلاموية، البوذية، البيئية... إلخ. إن وضع الكلمات في صيغة «إيّة» [الياء المصدرية]، لهو مُسكنٌ لاجتثاث الجذور واقتلاعها. فهذه الكلمات- أي التي بصيغة إية-، مثلها مثل بيوت الأم وقد حلّت محل المنزل الأصلي، تؤدّي دوراً كدور المنارات المضللة إذ تشير إلى الاشتقاق من جهة وتفعل فعلها المضلل من جهة أخرى. فأحفاد الشتات الذين يعيدون اكتشاف جذورهم وتحدّرهم، هم أقل تسامحاً مما كان عليه أجدادهم، الذين كان الدين بالنسبة لهم مثل اللغة الأم، التي يتكلمونها من دون أن يفكروا كثيراً فيها. وينطبق الأمر كذلك على الشخص ما بعد الحداثي، الذي يفقد نقاط علامه حين يندمج بزمنه، فيحاول استعادة طاقته وحيويته من خلال التقدّم في الزمن. حيث تكون الذاكرة مثل افتداءٍ وفديةٍ لمنفى، قسريّ بشكل أو بآخر، منفى يرمي في المدائن الكبرى هذه القنبلة البشرية: أي البشري التائه ذا الذاكرة الهائجة.

فالشخص العائِم التائه، يشير إلى مكانه الأصلي ومنبته، من خلال القلائد الـpin's وعلائم التعريف الـ badges، والأحجبة، والعلامات الطقوسية وقصّات الشعر والوشوم، فهي كلّها بمثابة حدود استعراضية وجوّالة.

وإذا كانت الأديان ترمي ببذورها في كل مكان، بعيداً من مهدها ومنبتها، فإن هذا لا يعني أنها ستمتزج وتندمج بلطفٍ ويسرٍ في المشهد العام. فالأديان تُبرز بالتنافس، وبطريقةٍ ساخرة ومستهزئة، إشارات تعريفها المتحديّة (نظام شَعري وبري، النقاب، التسيتسيت tsitsit[1]، الشعر المعقوص، الصليب، tilaka[2] التيلاكا الهندوسية...إلخ).

يشبه الأمر ما يحدث في المدينة وأرباضها وضواحيها، ويشبه التجمعات

1- Tsitsit شراشيب يضعها اليهود الأرثوذوكس.

2- tilaka هي علامة توضع على الجبهة وعلى أجزاء أخرى من الجسد لدى الهندوس.

السكنية ذات المداخن الملوِثة للبيئة، التي تطالب بحصتها السنوية من الشمس والكلوروفيل، بينما يطالب المشردون والفقراء- وقد جذبتهم المدن الكبيرة إلى سحرها- خفيةً بحق العودة، فقراء من مثل الأوزباكستاني أو الفلسطيني الذي يتعفن في مخيمه المصنوع من القماش والطين. فالدين بمعناه البعيد من الثقافة، هو بالنسبة إلى هؤلاء طريقة اقتصادية للعودة إلى القرية والبقاء في أماكنهم في الوقت ذاته. فكل فلاح مغترب يكون ممزقاً بين أمرين: بين فكرة الانعزال عن عالم الفرص التي تسدّ أوده (فرص العمل)، إن انغلق على نفسه ضمن عالمه الإثني الأصلي، وبين فكرة أن يفقد تقديره لذاته إن اندمج بعالم التقنيات. ويكون ممزّقاً بين بطاقة هويته (العائلية، الريفية، القبلية) وبين احتمال بطاقة اعتماد (قابلة للتبديل وعديمة الرائحة، فهو - كما في «ترسيمة إقلاع فطرية»- يعيد التوازن لانفتاحه الجسدي حيال العالم الواسع، من خلال تقوقع نفسي مرتدٍّ نحو الأسلاف. وذلك، لئلا يصبح أحداً ما كي لا نقول لا أحد أو أيّاً كان.

فلنتجنب إذن - على مستوى الأخلاق والذهنيات - انتقاد أثر العامل الوراثي على تقدّم الشروط المادية ومعدل الحياة (أو متوسط العمر المتوقع). للتقدّم انزلاقاته، وهذه العودة نحو التقاليد المعاد ابتكارها والمستعادة، هو من دون شك رد فعل يشابه نوعاً من الحماية الذاتية. ولن نفلت نحن أيضاً من ذلك، نحن أهل الغرب الصناعيين، المتضخمين دون العالمين في الأسرة الدولية. فالباطون الطاغي في كل مكان، والأجهزة اللاسلكية على أنواعها (التي تعمل عن بعد)، توقظ لدى الحضري الذي أقام في المدينة طويلاً، الشهية لكلّ ما هو صحي ومحبّ للطبيعة، وصولاً إلى البروكولي المطهو بالبخار، وشجرات العوائل والفنون (الأولية). كما لو كانت هناك حكمة للجسد، والجسد الاجتماعي ضمناً، فكأنّ الحاجة إلى الانتماء تملك مثبتاً للحرارة خفيّاً. فنحن حين لا يعود باستطاعتنا أن نعرف من نحن، نصبح على خلافٍ مع الجميع - وأولاً مع أنفسنا قبل كل شيء-. بالطريقة ذاتها، عند كل

قفزة نحو المستقبل، ترتقي درجة الرغبة بإيجاد الجدة أو ما نظنه جدتنا. خطوتان إلى الأمام وخطوة إلى الخلف. ذهاب وإياب غريب عجيب، حيث لا يوجد دائماً سبب يبعث على الضحك أو يستثيره، عندما نرى في الشوبينغ مول (الأسواق الكبيرة) في الخليج، أشباحاً تضع البراقع، وتشتري آخر صيحات الهواتف النقالة، في الوقت الذي تتزود فيه قبائل من الأمم الشابة المتقهقرة بالأسلحة الكيميائية والنووية.

أسوارٌ وأبواب، الصعود
(4)

ما الفائدة من الحدود في نهاية المطاف؟ الالتصاق، ومن أجل هذا، فإنها تشرئب. السور يمجد كل ما هو مائل، ويغطي هامة ما هو غير مرئي. كل موقع مغلق هو «آلة للرفع». مثل الباغود Pagodal؛ أيّ المعبد الصيني القديم ذا الطبقات الخمس، أو مثل برج الأسوار في اليابان القديمة، أو مثل قبة الأجراس أو برج الجرس في فرنسا الغابرة، فرنسا القمح والجودر. ويتوضّح هذا العامل الثابت الذي يملك قوّة رافعة، عبر ما أدعوه أنا «مسلمة عدم الكمال»، (مسلّمةً وليس نظرية)، فلا شيء يبرهن أو يدل على أن انقطاعاً حاصلاً ما، قد غيّر جذرياً من القوى العميقة التي يخضع لها التجمع البشري: «لا يمكن أن نقول عن مجموعة ما إنها مجموعة متممة استناداً إلى العناصر الخاصّة فقط بهذه المجموعة» (نظرية المجموعات في الرياضيات).

من أين تأتي إذن الفكرة القائلة إنه عند كلّ مرة يتحول تجمع سكّاني لا شكل له إلى مدينة، أو نسيج من المدن إلى أمّة، يرتفع في فضاء مسطح ومحدد عمود من الإشارات كعصا الراعي: مثل المسلة، والسهم، والعمود، ورأس المركب، وتمثال الحرية، وبرج إيفل أو الجبل المقدّس؟. عمود من

الإشارات كمثل جبلكم فوجي Fuji الواقع في أفق بحيرة تانوكي Tanuki: مخروطٌ فاتنٌ، مضادٌ وطني للاكتئاب، نقطةُ التقاء بين السماء والأرض، مصانٌ ومقدّس بطريقة ملموسة (وقد علمتُ أن صعود جبل الفوجي كان إلى زمن قريب محرّماً على الجنس اللطيف).

بيد أن النزاع المزعوم؛ الإغلاق في مواجهة الفتح، ما يزال يسلينا ويسامرنا كمتفرجين، إذ هما في الواقع يؤلفان زوجاً لا ينفصل إلا بقدر ما ينفصل البارد عن الساخن، أو الضوء عن الظل، أو المذكر عن المؤنث، أو الأرض عن السماء. فهذه الأفكار العامّة أو المبتذلة تسعد ذوي الأذهان البسيطة الذين يفضّلون الاستشهاد ببيرغسون Bergson[1] «أخلاق منفتحة ضدّ أخلاق منغلقة» أكثر من الاستشهاد بـ مارسيل دوشان Marcel Duchamp[2] «باب مغلق ومفتوح». فالأمر بسيطٌ، وفي الجملة، قابل للاستعمال، بيد أن الأمر ذا البعد الواحد، خاطئٌ. إننا نهمل ما يلزمنا من فتحة نحو الأعلى، كي نسدّ ونسوّر أرضاً بطريقة أفقية، كما نهمل ما يلزم من الـ «هناك» كي يتماسك الـ «هنا» ويأخذ قوامه ويدوم. فالسهم المنصوب في أعلى الكاتدرائية، هو أسّها، إذ يعطيها الثبات، تماماً كما يعطي برج الرصد للبلدة ثباتها وصمودها. فالحقيقة القائلة (حقيقة يتعذر برهانها ولا شك، لكن يمكن ملاحظتها بمختلف المستويات) بأنه لا توجد أي مجموعة منظمة تقدر أن تكون متممة إلا استناداً إلى عناصر هذه المجموعة فحسب، تقودنا إلى خلط النار بالماء. وتربطُ ما هو مفارق بما هو ملازم، وتربط الانعتاق بالانكفاء. فمجموعةُ الانتماءات تتشكل دفعةً

1- هنري بيرغسون (Henri Bergson. 1859- 1941) فيلسوف فرنسي. نشر أربعة مؤلفات رئيسية: دراسة حول المعطيات المباشرة للوعي. المادة والذاكرة، التطور الابداعي، مصدرا الأخلاق والدين. حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1927. وتدرس مؤلفاته منذ كانون الثاني عام 2012 في العديد من المجالات: السينما، الآداب، الفلسفة وفيزيولوجيا الأعصاب.

2- مارسيل دوشان (Marcel Duchamp 1887- 1968) فنان ورسام وأديب فرنسي حصل على الجنسية الأميركية عام 1955. ويعد الفنان الأكثر أهمية في القرن العشرين. وقد عدّه أندريه بروتون «الرجل الأكثر ذكاءً في القرن العشرين». ويعدّ دوشان ملهماً للعديد من التيارات الفنية كالبوب آرت، والدادائية الحديثة وغيرها.

واحدةً حين تنغلق، وهي تنغلق حين تُعلّق من «مسمار من نور»، كإلهتكم Amaterasu[1] آماتيراسو، وشعارنا «حرية، مساواة، أخوة»، وشعار سكان أميركا الشمالية «أمّة واحدة خاضعة لله»... فلكلّ تجمع، حجر عقده[2] وشاقوله. ومن المستحيل أن ينتصب ركامٌ ما، ليتحول إلى جماعةٍ بعينها من دون اللجوء إلى عاملٍ خارجي، يستدعي إلى متنه القديس والبطل: إنها عملية من شأنها أن تحوّل مجموعة من السكان إلى شعب. وإذ يولي الاقتصادي وعالم الاجتماع وعالم السكان اهتماماً علمياً بالأوّل أي بمجموعة السكان، وهذا مفرح. فإن الثاني أي الشعب، يبدو شأناً أكثر شيطانيةً وأكثر غرائبيةً بالوقت ذاته: القضية قضية خرافات وأشكال، تلزمها أسطورة وخارطة، هي قضية أسلاف وأعداء. فالشعب هو مجموعة من السكان لها حدود من جهة، وقصاصون روائيون من جهة ثانية. عندما تقولبت الجمهورية الفرنسية الثالثة، وأضحت فرنسا ذات الشكل الهندسي المسدس والسلموني، المعلّقة على الخرائط الجدارية في المدارس، أُتخمت بكتابين:«أسطورة العصور»[3] و«طفلان يجوبان فرنسا»[4].

البؤس الميثيولوجي للاتحاد الأوروبي الهش، الذي يحرمه من كل «نية بالمشاركة» (باللاتينيةaffectio societatis)، ناجمٌ في نهاية المطاف، عن أن الاتحاد لا يجرؤ أن يعرف، بل وأكثر من هذا، أن يعلن أنه يعرف أين تبدأ حدوده وأين تنتهي. فلان ما أو أمّة ما أو فيدرالية ما من الدول- القومية،

1- آماتيراسو Amaterasu. هي آلهة الشمس. ووفقاً للأسطورة فهي جدة كل الأباطرة اليابانيين. ويظهر رسمها على العلم الياباني بشكل قرص الشمس.

2- مصطلح من هندسة العمارة.

3- أسطورة العصور هو ديوان للشاعر والأديب الفرنسي فيكتور هوغو. وينظر إلى هذا الديوان باعتباره الملحمة الحقيقية الوحيدة الفرنسية، وقد وصفها شارل بودلير باعتبارها الملحمة الحديثة الوحيدة الممكنة.

4- رحلة طفلين حول فرنسا كتاب قراءة مدرسي لأوغستين فوييه. يتميز الكتاب بطابعه الوطني ويهدف إلى تأهيل الناشئة من نواح عديدة: التربية المدنية جغرافيا تاريخ العلوم والأخلاق. كما يهدف إلى حث الناشئة لاستعادة منطقتي آلزاس واللورين.

أيّاً منها يفوته أن يعترف لنفسه بما هو «فوق» (إشارة إلى القوانين)، لن يستطيع الاضطلاع بما هو «خارجه». فهو لا يطيق حتّى فكرة تقول بوجود «خارج» وينكر إذن «داخله». فالذي يريد أن يبزّ نفسه ويتفوق على ذاته، يبدأ من نقطة وضع الحدود لنفسه. وقد فات أوروبا أن تتخذ لنفسها شكلاً: وإذ لم تتجسد في شكلٍ محددٍ، فقد انتهى بها المطاف إلى أن أسلمت روحها. لكن ليس هذا إلا الفصل الأول: فالقداسُ لم يُتلَ، ولم تقم الجنازة بعد. ومن المحتمل أن يكون القرن الثاني والعشرون أفضل.

للحدود هذه الفضيلة، التي ليست جمالية فقط،: أن «تبهر الطريق» أو «تسحر الناس في الطريق»، فالحدود تضع وسطاً ما، تافهاً ولا قيمة له غالباً، تحت الضغط والتوتر. لا شيء يمكن عمله إن لم يكن ثمة رعشة أو حماسة في نهاية الطريق، كمثل جزيرة سيتير Cythère في الأوديسية[1] في أفق رصيف الإبحار. هناك حيث الطريق المجوّف المقعر، يتغلغل في منطقة كثيفة الحراج يبتهج العالم مجدداً.. من هنا ثمة «حواف موجّهة»[2] في رأس كلّ الباحثين عن الذهب. فـ «جوّاب التخوم»[3]، مسّاح الخطوات، صديق الغسق (من لم يعد ظلاً، ولا طريدة كما يقول بروتون[4]Breton)، لا يمكن إلا أن يحوز استشعاراً لما هو خلبيّ وخارق. فالمرء المؤاخي للتخوم والمتآلف معها، يكون متآلفاً

1- سيتير Cythèreجزيرة يونانية في بحر إيجة. تقول الأسطورة إنه حين قررت غايا معاقبة زوجها على الأذى الذي سببه لها، دعت أولادها وطلبت منهم قتله. فأخذ ابنها كرونوس منجلا من أحشائها وقتل والده بقطع أعضائه التناسلية، التي سقطت في البحر ونتجت عنها الجزيرة الصغيرة سيتير. وحين لامست قطرات الدم البحر، ولدت الآلهة أفروديت. ويذكر المؤرخ هيرودوت وجود معبد باسمها في الجزيرة.

2- «تروبيزم» Tropismes وهذه الكلمة مصطلح علمي خاص بتوجه النباتات بفعل محرض خارجي كالضوء. استعملته الكاتبة الفرنسية ناتالي ساروت خارج معناه القاموسي وأوضحت الكاتبة قصدها من هذه التسمية بأنها تلك الحركات العصية على أي وصف.

3-جواب التخوم مؤلف لكينيث وايت Kenneth White شاعر ومفكر معاصر (1936) يعيش في فرنسا منذ الثمانينات

4- أندريه بروتون 1896) André Breton-1966) كاتب فرنسي وشاعر ومنظر السريالية، ويعد من أهمّ شخصيات القرن العشرين..

أيضاً مع الكأس المقدسة[1]، والحقول المغناطيسية. فقد فتح السرياليون عبر خط الحدود وتنسم الأخبار، نوافذ بيت ديكارت (أي أطاحوا العقلانية). ولم يكن هذا الأمر إلا وثيق الصلة بالجغرافيا - السياسيّة لما هو خارق للطبيعة، بقطع النظر عن كلّ إكليروسية[2]. إذ غالباً ما تقع تجليات العذراء وظهوراتها، عند الحدود (حدث هذا مؤخراً في مدينة ميدجوغورجيه Medjugorje، في البوسنة والهرسك)، سواءٌ أكانت هذه الظهورات بين حدود الدول أو بين حدود الطوائف كما في لبنان. فلنبقَ ملتصقين بالأرض ولنكن واقعيين: الجنيّات نفسها هي وقائع أيضاً. ولنلاحظ الصلة بين الإشراق والسجن. إذ في حال لم يكن من مقتٍ وكراهةٍ للمدارس القديمة والمياتم والإصلاحيّات (سوء معاملة وتعنيف بشتى الأنواع)، لداعبتنا فكرة أن نرى وبعين متسامحة، زنازين الروايات السوداء، ورائحة العفونة في المهاجع كذلك. فتلاميذ القسم الداخلي في المدرسة (المدارس الداخلية)، لهم طاقةٌ على التخييل أكثر إشعاعاً من التلاميذ خارجاً. وقد ذكّرنا جوليان غراك، البارع في الرواية والجغرافية على حدّ سواء، من أين خرجت أحذيتنا المجنحة، ومن أين أتت علامات السلوك السيئ للتلاميذ الذين كانت بالنسبة لهم «الحياة الحقيقية، خارجاً»، ذكّرنا من أين خرجت وأتت، من أيّ انزواء «مرتعد وفظّ»، ومن أيّ مدرسة داخلية مقيتة - حضنت في غابر الزمن ذاك «الطفل الممتلئ حزناً». الأمر ينطبق كذلك على سجن الباستيلBastille، الذي قدّم أجنحةً، لرجل سمينٍ، ليس إلا الماركيز دوساد، كما قدّم أجنحةً لجحيم الكتب الممنوعة المسيّج،

1- في الميثولوجيا المسيحية، الكأس المقدسة كانت طبقاً أو لوحاً أو كوباً استخدمها يسوع في العشاء الأخير، يقال إن الكأس ذات قدرة إعجازية. العلاقة بين أسطورة الكأس المقدسة ويوسف الرامي جاءت عن طريق رواية روبرت دي بورون Joseph d'Arimathie (يوسف الرامي؛ في أواخر القرن الثاني عشر) التي حصل فيها يوسف على الكأس عند ظهور ليسوع، وأرسله إلى أتباعه في بريطانيا العظمى. وعلى هذا الأسلوب، تكمل الرواية أن يوسف جمع دم المسيح به، وأبقاه تحت خط حراسة في بريطانيا. الأسطورة تجمع بين الميثولوجيا المسيحية والميثولوجيا الكلتية؛ بالإضافة إلى وجود قوى خاصة فيها.

2- الإكليروسية تموضع إيديولوجي يقول بسيطرة الأفكار الدينية وأفكار الإكليروس على الحياة العامة والحياة السياسية.

وهو ما أوحى لأمين مكتبة أورليان البلدية؛ العفيف جورج باتايGeorges [1] Bataille، فسقاً وفجوراً ملوكيين.

ليس غير العشاق المولعين، والعلماء المتزمتين، من تشدّهم الأسوار نحو الأعلى صوبَ الأعالي. فالأسوار تستثير أيضاً، الذكاء الأكثر ابتذالاً وعامّيةً، أي ذكاءنا. والدليل، أنه في فرنسا أُلغيت - مثلما تفرض الموضة الحالية - مسابقات الثقافة العامّة الكتابية، الخاصّة بالموظفين الراغبين بالالتحاق بالجسم الإداري للدولة لصالح اللغة الإنجليزية اليومية البسيطة، والمحاسبة. أُلغيت فيها كلّها خلا تلك الخاصّة بمسابقة الالتحاق بالجمارك. فللجمركيين الإذن في اختراق العصابات، وفي الحثّ على ارتكاب الجنح، وهما من الأمور الممنوعة على الشرطة العادية. ذلك لأنّ مهمة الدوريات على الحدود، تتطلب كثيراً من الحنكة، والوعي. فنحن نجد أكثر الناس فهلوية وشطارة، عند نقاط الاتصال والتجاور.

فالمدن الحدودية، ترتفع كما يرتفع العجين الثقيل وقد اختمر: طنجة، تريبستا Trieste، سالونيك Salonique، الإسكندريّة واسطنبول. مدنٌ تستقبل المبدعين والمغامرين، ومروجي المخدرات والأفكار، ومسرعي تدفق الأموال. وتكون مؤهلات رجل الجمارك كالآتي: إنه مزّاح مهرج، متهرب كسول، مبتكِر، أكثر يقظة من الخاملين في المناطق النائية، أو لـ هينتر لاند Hinter-land[2]. وعلينا نحن جميعاً، نحن المتبرمين ديناً تجاهه. كيف ستكون حال اللغة الفرنسية اليوم من دون قراصنة ما وراء البحار؟ الأمر سيّان بالنسبة للحضارات كما بالنسبة للغات: تكون اللغات راكدةً خاملةً، لكنها تدين

1- جورج باتاي 1897) .Georges Bataille-1962)، كاتب فرنسي متعدد المواهب، وتنفتح مؤلفاته على مختلف الحقول: الأدب، الأنثروبولوجيا، الفلسفة، الاقتصاد، علم الاجتماع وتاريخ الفن. ويرتبط مصطلحان باسمه: الإباحية والخروج عن الأعراف والتقاليد.

2- بلد خلفي أو هينتر لاند hinterland هي منطقة قارية تتموضع وراء شاطئ أو نهر بطريقة متعارضة مع خط الساحل،وتعني في علم الجغرافيا منطقة تأثير وجذب اقتصاديين للمرفأ. لفظ الهينتر لاند مشتق من الألمانية ومستعمل في الإنجليزية وفي اللغة الفرنسية.

بطفراتها إلى أطراف لغات أخرى، وإلى التغيرات الناجمة عن الاحتكاك غبّ لقائها بتلك اللغات الأخرى، تلك التي عُدّت أجنبيةً حتذاك. الأكثر غباءً في ذلك، هو خلق تعارض بين المركز والأطراف؟ بين الجوهر والظاهر؟. إذ إن حميميتنا تتعرى تتبدى من خلال الأدمة. يقول فرانسوا داغونييه -Fran[1] çois Dagognet، الكاتب الأكثر غزارة بين الموسوعيين الفرنسيين اليوم: «الجلد هو الجهاز الأكثر داخليةً: فكلّ شيء يترك أثره فيه، والعكس صحيح». وباعتبار أن داخل الجلد ليس إلا خارجه المثيل أو المماثل، كما أن خارج الجلد ليس إلا داخله المثار المهيج، فإن جلد الكائن يضع أسراره في الواجهة. فلنصغِ إلى أخصائي الجلد جان بول ايسكاند [2]: «الجلد ليس غلاف الجسد فحسب، بل هو أيضاً مرآته وملخّص عنه». فلا شيء يُظهر بشكلٍ أفضل، النوايا السيئة لمجتمع ما، بقدر ما تفعل مراكزه المتقدّمة. من أجل بلوغ أقصى الأعماق، عليكم بالابتعاد عن العاصمة، وأخذِ الدروب المتعرجة التي تتيح المراقبة. لقد اتبعتُ هذه القاعدة بنفسي في الأرض المقدّسة، ولا أظنني أصبت بالعمى أو انبهرت. هناك، يوجد المسيحيون الأصليون، واليهود الأصليون، والمسلمون الأصليون. أمّا القابعون في الخلف، فليسوا كما يقال، إلا تقليداً شاحباً باهتاً، ذلك لأنهم محميون بشكل مفرط. وكلما كانوا أكثر تعرضاً لمخاطر الحقن المتواصل والبلبلة، بسبب مجاورتهم للإخوة- الأعداء، كلما كانت المراكز الأمامية لكل فريق منهم، تحشد دفاعاتها والأجسام المضادّة أكثر، تماماً كما القطة إذ تنشب مخالبها.

ومن المفيد أيضاً، أن نفكر في الحدود أكثر من أن نهيم ونضيع على

1- ولد داغونييه Dagognet.عام 1924 لأسرة متواضعة. عرف داغونيه مسيرة مدرسية غير عادية إذ حصل على الشهادة الابتدائية وتوقف عن الذهاب على المدرسة. وحصل على إجازتين جامعيتين في الفلسفة وفي العلوم. يمتلك داغونيه معرفة دقيقة واصطفائية في مجالات عديدة منها الكيمياء والطب النفسي العصبي، والجيولوجيا، وقد دعا إلى التفكير فسلفياً في مناهج هذه العلوم.

2-. جان بول إيسكاند Jean Paul Escande طبيب فرنسي ولد عام 1939، مجادل ومناظر معروف بمواهبه في التبسيط، ألف حوالي خمسة عشر مؤلفاً.

التخوم: فكل زاوية جديدة من المعرفة تنبثق من هوامش سابقة لها، ويتمّ ذلك عبر ضبط عدسات الحدود المتروكة في ما هو غائم ومبهم. سواءٌ أتعلق الأمر بعلوم صلبة أم بعلوم مرنة، فإن المعرفة تتقدّم في ما هو كائن بينهما (أي المشترك بينهما). مثل تلك الضواحي الخطرة، المتصلة بالمدينة التي تكون مفيدة بقدر ما هي سيئة السمعة. يقول مارسيل ماوس Marcel Mauss[1]: «حين يحرز علمٌ ما من العلوم الطبيعية تقدّماً، فإن ذلك لا يكون إلا في اتجاه ما هو ملموس، وباتجاه ما هو مجهول دائماً». بيد أنّ ذاك المجهول يقع على تخوم العلوم، هناك حيث «يلتهم» العلماء بعضهم بعضاً مثلما يقول غوتهGeothe، (أقول «يلتهم»، بيد أن غوته لم يكن مهذّباً إلى هذا الحدّ في تعبيره). وبصورة عامّة، تكمن المسائل الملحّة في هذه المجالات غير الموزعة بشكل عادل بين العلوم. بيد أنّ هذه الأراضي البور تحمل من جانبٍ آخر ميزةً. ففي العلوم الطبيعية الراهنة، نجد دائماً لافتةً بشعةً. إذ ثمة دائماً تلك لحظة حين لا تكون المعرفة ببعض الوقائع قد اختُصرت وتبلورت إلى مفاهيم بعد، وحين لم يتمّ بعد جمع هذه الوقائع ضمن مجموعات بشكلٍ عضوي، عندها تُنصب على ركام الوقائع هذا، لافتةُ الجهل: «متفرقات». فهنا تماماً يجب الاستقصاء والحفر. إذ إننا متأكدون بأنه هنا تكمن الحقائق التي يجب إيجادها».

لا تنتظروا مني كباحثٍ في الإعلام (إعلامي) أن أخالف قول معلّم ليفي شتراوسLévi-Strauss[2]، أي مارسيل ماوس. فقد نصب ليفي شتراوس بنفسه خيمته في الطرق الجانبية، والـ «متفرقات» هي مجاله المفضّل وحقله المصطفى. فهو يستكشف الأراضي البور القائمة بين علم الاجتماع،

1- مارسيل ماوس Marcel Mauss (1872-1950) يعتبر أبا علم الانثروبولوجيا الفرنسي.

2- كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss (1908-2009) عالم أنتروبولوجيا وعالم في الإثنيات فرنسي، كان له تأثير حاسم على العلوم الإنسانية في النصف الثاني من القرن العشرين، وهو أحد أهم مؤسسي الفكر البنيوي. أستاذ برتبة الشرف في الكوليج دو فرانس وعضو في الأكاديمية الفرنسية.

وتاريخ الأفكار، وتاريخ التقنيات، تلك «الأراضي» التي تنظر شزراً إلى متسكع الضواحي هذا، وهو يمشي بخطٍ متعرجٍ بين السطور. وتنظر بالطريقة ذاتها إلى (ماوس) عالم الاجتماع المبتذل في سنوات الـ 1900، الذي كان يقفز بين علم التاريخ والأخلاق، إبان دراسته للدوطة لدى الفتيات المتحدرات من الطبقات النبيلة. وأن ننقل اهتمامنا إلى « أدوات الروحانية»، بعد مرور قرنٍ على ذلك، فهذا يعني أن نغرّب أنفسنا ونضعها في بين بينين محتقرٍ. إذ إننا نهدف في الواقع، أن نجعل من الـ «منطقة المقنّعة» التي سلمت حتّى الآن من رشقات الأكاديمية، «منطقةً ممهدةً» ومحتفى بها. كيف يتمّ ذلك؟ يتمّ من خلال التفتيش في حاويات العلوم الاجتماعية المعتمدة، عبر تفحص عن كثب وعلى حدّ سواء لـ: خبز الذبيحة (البرشام)، وعصا الراعي، والمغسلة والسيارة، وجهاز التحكّم عن بعد، والطريق، والدراجة، والورق، والنقطة المضيئة (بيكسل) إلخ.... أي تفحصّ كلّ ما لا أهمية له بالنسبة للاختصاصات المعترف جداً بها، وعلى أعلى المستويات اختصاصات من مثل؛ علم اللاهوت، علم الاجتماع، وعلم الدلالة (السيميائية)- تلك الاختصاصات التي تخدّرها مسمياتها الرفيعة.

قانون الفصل
(5)

«اليوم لم يعد ثمة حدود»، كذا نسمع كلّ صباح، على طاولة المقهى، وعلى طاولة البار، هناك في باريس حيث توجد أفضل فلسفة. وسيتعرّف فويرباخ Feuerbach[1]، مربي ماركس العظيم، في المقهى على أبنائه مريديه الصغار. ففي الواقع لم تعد ثمة حدود، فلا حدود لارتفاع الرواتب والدخل، ولا حدود لتفاهة السيدات الوقحات، أو لخفّة الرؤساء الصفقاء. كذا فإن فحش هذا العصر لا ينشأ عن الفائض بل عن الخسارة في الحدود. لم يعد من حدود لـ لأنه لم يعد من حدود بين: بين الشؤون العامّة والمصالح الخاصّة، بين المواطن والفرد، بين النحن والأنا، بين الكائن والمظهر، بين المصرف والكازينو، بين الخبر والإعلان التجاري، بين المدرسة من جهة، والمعتقدات والمصالح من جهة أخرى. بين الدولة وجماعات الضغط (اللوبي)، بين غرفة الملابس

1- لودفيغ فويرباخ 1872 - 1804) Ludwig Feuerbach) ألماني كان تلميذا لهيغل ثم ناقداً أو منتقداً له وهو على رأس التيار المادي أو الهيغلية اليسارية التي تضم كذلك ماركس وأنغلز. من مؤلفاته المرء هو ما يأكل، غموض القربان. أفكار حول الموت والخلود. تاريخ الفلسفة الحديثة، جوهر المسيحية وغيرها.

(المشالح) و(أرض الملعب) العشب. بين غرفة نوم رئيس الجمهورية ومكتبه. وقس على ذلك. نزاعٌ على المصالح، وعلاقات خطرة تنجم عن الخلط في المجالات. حمل مبدأ العلمانية اسماً: الفصل. أمّا قانون المنتدى العام فحمل اسم: الخصوصية في المنزل. وقد اتخذّ اسمه هذا في أيار/مايو 1968، إبّان نشوة ضجيج جذابة. لكنه يغرق اليوم في حمّى الأعمال التجارية وفي النزعة الاستعراضية التافهتين. الآن هو الوقت المناسب، وقت مناشدة الإله تيرم Terme، ووقت إقامة معالم الحدود وإعادة طلاء الخطوط الصفراء. وإلا فإننا لن نكون بعيدين من «نهاية العالم» تلك التي أعلنها فييورباخ مؤلّف كتاب «جوهر المسيحية» - على الأقل، بعيدين من هذا العالم ذي الوجوه المتعددة، العالم الذي لم تكن إمبراطورية الأرقام والصورة قد هذّبته وشكّلته بعد، إذ كانت له أشكالٌ يجب احترامها.

هذا ما أدّى - اليوم إلى التخبط في ما لا شكل له. لأنّ المقصود كان بلوغ الحقائق مباشرةً من دون مُهلٍ وكيفما اتفق. والهدف المراد من ذلك، هو تلقائية من دون عقد، لكن هذا، ينمّ عن الاصطناع. فغياب المداعبات يسيء إلى اللذة، مثلما العيب في الإجراءات يسيء إلى العدالة الحقّة. لا حراس في الأبنية، ولا عتبات أمام المحال. إنه لأمرٌ لا يبعث إلا على الكآبة؛ البريد الإلكتروني من دون صيغ تهذيب، الجنس من دون عبارات غزلية، وجبات الماكدونالدز من دون المقبلات. تكمن السعادة في الـ ما قبل، فليكن ذلك، لكنها ليست في القفر.

كبار علماء الاجتماع الذين اعتبروا العظمة تميّزاً، فتحوا بذلك صنابير النقود والتمويل، التي «يغضبها» كلّ حاجز، ويزعجها كلّ استثناء ثقافي. للحدود سمعة سيئة: هي تدافع عن السلطات المضادّة. فلا ننتظرنّ من السلطات القائمة، التي هي في موضع القوّة، أن تقوم بالترويج للحدود. ولا من تلك المجموعات المخترقة للحدود (المتجاوزة) مثل: تلك التي تتهرّب

من الضرائب، وأعضاء الجت سيت[1]jet-set، والطبقة الثرية، ونجوم كرة القدم، والمتاجرون باليد العاملة، والمحاضرون بخمسين ألف دولار، والشركات المتعددة الجنسية التي تعتمد أسعار التحويلات، أن تعلن جميعاً عن حبّها لما يقف حاجزاً أمامها وحيالها. ففي رتابة ما هو قابل للبيع (السعر الرجراج) يزداد التوق إلى ما هو غير قابل للقياس (اللا محدود)، وإلى ما هو غير قابل للمقارنة، وإلى ما هو مقاوم عصي على الإذعان. ولكي نستطيع مجدداً التمييز بين ما هو حقيقي وما هو مزيف، يكمن هنا إذن، درع المتواضعين، الذين يتصدون لما هو ضد ما هو فائق السرعة، وما يتعذّر الإمساك به وإدراكه وما هو كلّي الوجود. فالفئة المجرّدة من الملكية، هي التي لها مصلحة في وضع الحدود وإقامتها بطريقة باترة واضحة. فكل ما يملكه هؤلاء المحرومون هو الأرض، والحدود هي مصدر دخلهم الرئيسي (فكلما كان البلد فقيراً، كان أكثر اعتماداً على الضرائب الجمركية). تحقق الحدود مساواةً (نوعاً ما) بين القوى غير المتكافئة. إذ يذهب الأغنياء حيثما يشاؤون وبلمح البصر؛ أمّا الفقراء فيذهبون حيثما يقدرون وبشقّ النفس. أمّا الذين يتحكمون بالمخزون (رؤوس نووية، ذهب، عملات، ومعارف وبراءات اختراع) فإنهم يلاعبون المدّ والفيض، ليصبحوا أكثر غنى أيضاً. بينما يكون الذين لا يملكون أي مخزون، أداةَ لعب المدّ والفيض. فالقوي هو إنسان انسيابي. أما الضعيف فليس له إلا مهده: دينٌ حصين، متاهةٌ لا يمكن احتلالها، حقول رز، جبال، دلتا. حروب غير متكافئة. يكره القناص الأسوار: أما الطريدة فتحبها. القوي يسيطر على الفضاء مما يقوده من جانب آخر إلى المبالغة في تقدير قوته. ليس لدى المقاومين ورجال العصابات guérilleros و«الإرهابيين» حوامات هليكوبتر

1- ظهر مصطلح الجت سيت jet set أو المجتمع جت في الخمسينيات من القرن المنصرم ويدل على طبقة النخبة في المجتمع (أصحاب المليارات، الارستقراطيين)، حيث تكون إقامة الحفلات في أماكن خاصّة هي مدار اهتمامها الرئيس (مطاعم راقية، نواد خاصّة.. إلخ)ويعد تعبير الجت سيت مرجعاً في المتخيل الشعبي عن فكرة طبقة أصحاب الامتيازات: فأعضاء الجيت سيت هم هؤلاء الذين يملكون الوسائل المادية للتمتع بملذات الحياة من دون أن يعملوا، خلافاً للشعب ولطبقة البروليتاريا.

ولا طائرات من دون طيار، ولا أقمار للمراقبة. والسماء ليست حليفتهم، بل ما تحت الأرض. يتآخون مع الأنفاق والجحور، والدهاليز تحت الأرض، أحسنت أيها الخلد الهُمام!.

هل نأمل بمسكن آخر غداً غير الجحر والمغارة؟، لكن علينا ألا ننخدع بكل ما ستحمله لنا العولمة في ما يتعلّق بالبلقنة. وبكل ما ستحرّره القنبلة «الشتاتية» (قنبلة الشتات) هنا وهناك من طاقة تشعّ من الهويّة. فيضٌ من الهجرة، انتقال للبشر، واختلاط الأعراق، كلّها أمورٌ مرّحبٌ بها. لكن ثوب المهرّج العالمي هذا، يمثّل مواجهةً بين الأعراق وتهجيناً لها على حدّ سواء. إذ إن فيض المهاجرين يوقظ رهاب كراهية الأجنبي لدى البلدان الغنية التي تستقبلهم. وفي المدن الكبرى المكتظة، يحفر منفيو البؤس خنادقهم الخاصّة. يذكّر جوليان غراك في كتابه «شكل المدينة» بأن «حال الصدام المستتر والمستمرّ يكهرب العلاقات». فالاحتكاك الحضاري يستثير حساسية الجلد (الأكزيما). والأصوليون الدينيون هم مرضى جلد العالم المعولم، حيث تتلامس الثقافات وتحتك. «حين يتحدّ الفضاء غير المحدود، بحيث يغدو كلّه منطقةً حدوديةً، فإن العالم برّمته يغدو منطقة سريعة الاستثارة». فكلّ اصطدام هو صرخة غضب، وكلّ سوء تفاهم هو رغبة بالغلبة. بسبب كلمة زائدة عن حدّها نتصارع، ونترصد ونهين بعضنا بعضاً، ونستشيط غضباً. تُوّلد نرجسيةُ الاختلافات الصغيرة، التي تحتدم بالتواصل الفوري، شعوراً فورياً بالاضطهاد. مراقبة مفردات اللغة، والانتباه إلى أقل حركة، والحكم على النوايا بين الجماعات - تترك كلّها أثراً مرّاً لعولمة غير قابلة للامتزاج. سيقال إن هذه مسألة قديمة. كانت ستراسبورغ على الدوام أكثر تزمّتاً من باريس، والقدس أكثر يهودية من تل أبيب!. ولاهور أكثر أصوليةً من كراتشي، وبومباي أكثر هندوسية من دلهي. ذلك أن الظهور على حدّ الحافة يستحثّ الشرى (الطفح الجلدي). نكون واهمين حين ننظر إلى الحضارات باعتبارها بركاً كبيرة، تتسطح من المركز وحتّى الأطراف وصولاً إلى حدودها الكئيبة، وتتدرج من الأكثر تلوناً

وحتّى الأكثر شحوباً. وعلى العكس من ذلك، تكون التعرجات في المستوى: ففي مزيج أكثر بركانيةً وأكثر غلياناً على حدّ سواء، تنهض أحواض الحضارات مثل النوافير، وبعضها تنهض مثل الدستية[1]. فهل تتأزم تلك الحضارات الواقعة بين بين؟. يجب على «الأسرة الدولية» (أو على المسؤولين) أن تضع أصحاب القبعات الزرق، عند نقط الاتصال بالطبقات الإنسانية، قدر ما تكون خطواتها المماثلة فالتةً من سيطرة سلطة الدول المركزية. ويتمّ ذلك من خلال وضع الحدود للإمبراطوريات، ومعاقبة حروبهم البلهاء، والوقاية من امتعاض الواقعين تحت الاحتلال، والمهانين.

برنامج واسع عريض في الإفساد والمفسدين.

يظن البورجوازي الصغير نفسه متحرراً حين تكفّ الظروف السائدة عن التمييز بين الطبقات، بين الجنسين، بين العمل والمنتَج. بين الأسود والأحمر، بين الخبر والاتصالات، بين المال والتأنق، بين المسرح والصالة، بين الشيء وما يعلن عنه. يولد الملل أصلاً في الفوضى والتشوش. فقد اختفى الآخر، واختفت معه عصا السلبية. إنها لنرجسيةٌ معممة. ولا أشكّ في أننا نختصر الدفاع عن الحدود، إلى محض مديح البرقيل[2] قبالة القربينة[3]، أو مديح خط ماجينو [4] Maginot حيال دبابات البانزر panzers[5] الألمانية. قيل لي إنّ محرك البحث

1- الدستية: منخفض يشبه الدست متولد عادة من انفجار بركاني.

2- قوس قديمة لقذف السهام والكرات والحجارة.

3- القربينة (بالإنجليزية Arquebus) سلاح ناري مبكر يُعبأ من الفوهة استخدم بين القرنين الخامس عشر إلى السابع عشر. تتميّز عن سابقها المدافع اليدوية بأن لها فتيلا. كخليفتها المسكيت (Musket) هي سلاح ناري أملس الماسورة، إلا أنها أخف وأسهل في الحمل ويتراوح عيارها بين 15 - 18 مم. تعتبر سلف البندقية وغيرها من الأسلحة النارية بعيدة المدى. الكاليفر هي نسخة محسنة من القربينة أنتجت أوائل القرن السادس عشر .

4- خط ماجينو ligne Maginot. هو خط تحصين ودفاع أقامته لجنة تنظيم المناطق المحصنة. وقد بنته فرنسا على طول حدودها خلال سنوات -1920 1930 وقد أخذ اسمه عن وزير الحرب آنذاك أندريه ماجينو. وعادة ما يستعمل للدلالة على خط الدفاع بين فرنسا وألمانيا.

5- البانزرPanzer. مدرعة مصفحة ألمانية شهيرة استعملت في الحرب العالمية الثانية.

غوغل، وإن معهد باستور للأبحاث الطبيّة، ومجموع الخبراء بين الحكومات، الذين يدرسون تطور المناخ - من دون أن ننسى، لكن لأسباب مختلفة جداً- استوديوهات هوليوود، جميعها تنمذج وتُحسب فوق خط الأفق. أفلا تعلمون يا سيدي أن «الثروات الثقافية» غير المادية، تسقط علينا من السماء من دون أوراق ثبوتية، ومن دون سيلولويد[1] ولا شرائط ممغنطة؟ فلنعترف بـ: أن الولع الشديد بالأجهزة الحديثة والغايا [2]، تعطي ملمح البداهة، لعقيدة اللا - حدوديين (الذين يرفضون الحدود)، تلك البداهة التي من دونها لما تمكنوا من غزو الـ «قلوب والعقول» لهؤلاء المغتبطين بدار الحضانة من ملائكة صغار وسذّج. إذا كان الملفُ الأسود للحدود منتشراً في كل مكان (كشعار: «القومية، هي الحرب!») فإن اللا حدودية الإنسانية، تبرع بدورها في تبييض جرائمها. زد على ذلك أنها حوّلت اللا حدودية، الارتباكية (التشويشية[3]) إلى معتقد أخروي (عقيدة الخلاص- الاعتقاد بالمسيح، بعودة المسيح). وقد ألبست الثورة ثوب ثورة مضادة. فلنرد إليها خبثها في الحرب الكلامية، مع قبضة أو من «يّة = ياء النسبة» (العكس الصحيح أو الوجه الآخر الصحيح لهذه السيادية، اليعقوبية، الثقافية، النسبية، وإلى ما ذلك من صفاقة أخرى يضفيها هو بذاته على هؤلاء الذين يمنعون تقليدهم ومحاكاتهم.

إلى الأمام أيها الكسالى ! ماذا تعني اللا حدودية؟

- اقتصادية: وتكون من خلال اعتماد السوق العالمية -global market place، و«إدخال» اقتصاد المقاييس والنوعيات، و«إضفاء هالة القلب الطيب والمشاركة في المصائر» على حرية النقل والعبور لرؤوس الأموال والبضائع، التي ويا للغرابة، يُفترض فيها إقصاء «بضائع» العنف أيضاً. فإن هذه النزعة

1- مادة صلبة شفافة، قوامها السللوز والكافور، تصنع منها الأفلام والأمشاط إلخ.

2- في الميثلوجيا الإغريقية غايا Gaïa هي الآلهة الأم. هي الجدة الأمومية للأعراق المقدسة وابنة عديد من المخلوقات.

3- حالة ذهنية تؤدي إلى تشويش الأفكار بحيث يصعب القيام بتحليل موضوعي للوقائع.

تُقنّع الشركات المتعددة الجنسيات وتعطيها صورة الأخويات. وتوجه ركلةً إلى السياسي الخاضع للقيد الانتخابي الذي تفرضه عليه «منطقته». فهي تكفل أقلّ ما يمكن من قرارات «الدولة»، عبر وضع قناعٍ هو النتيجة الطبيعية لذلك: مافيا أكثر. وتعطي بريقاً من الكرم لقانون حكَم القوي على الضعيف (شريعة الغاب)، وتغطي بمعطف الرحمة والشفقة المخالفات العقارية والخصخصة. فمجتمعاتنا مجتمعات الأوف شور[1] off shore، يحملها المال المتنقل، والكتابة الرقمية، وعالمية البتbit (وحدات القياس الحاسوبي) وهو ما يلذّ لها وتستسيغه. وهو أيضاً ما يضمن ويؤمن وجود الداعمين الممولين Sponsers، ووصول الأعمال الخيرية إلى الأوج.

- تقنية: أداة معيارية لا خط طول لها ولا خط عرض. وسيكون لنموذجي الأخير عمرٌ قصيرٌ لكنه سينوجد في كل مكان بلمح البصر. المعياري الـ Uni-code أحادي الشيفرة من شأنه أن يشفّر كلّ أنواع الكتابات (بما فيها آلاف أبجديات الكانجي kanjis[2] الموجودة عندكم)، ويفرض نفسه على جميع الحواسيب. هذ الشطط hurbis [3] الآلي الروبوتي الذي يقدّم نفسه على أنه تجاوزٌ الثقافة العالمية، الرقمية والألياف البصرية المساعدة، تنتهي إلى الخلط بين ما بعد البشري والنار الكاذبة[4].

- استبدادية: لا يستبطن الجانح فكرة الحدود. ولا النبي كذلك، ولا العالِم المزيف أيضاً. لهؤلاء الدهاة الثلاث شيءٌ مشتركٌ: أن يفوقوا الحدود

1- الأوف شور Offshore مصطلح إنجليزي يعني حرفياً خارج الحدود، وقد يستعمل في وصف نشاطٍ يجري في مياه البحر من دون أن يكون صيداً أو نقلاً بحرياً. مثال بحوث واكتشاف النفط. أما في مجال المال وإدارة الشركات فإن مصطلح أوف شور يستعمل من أجل الإشارة إلى إنشاء كيان قضائي في بلد آخر مختلف عن ذاك الذي يجري فيه النشاط وذلك من أجل رفع الضرائبية إلى أقصى حد (جنة ضريبية).

2- الكانجي kanji. هي عناصر من أحد ثلاث مجموعات الكتابة أو الخط الياباني.

3- من الإغريقية القديمة اليونانية تعني أقصى الفخر أو الكبرياء، وتشير كذلك إلى نقص في الاتصال بالواقع وزيادة في تقدير القدرات الذاتية خصوصاً حين يكون الشخص في موقع قوة.

4- النور الناجم عن تفسخ الجثث في القبور.

ويتجاوزوها. بما أنّ لديهم إجابة عن كل شيء، ويعتقدون أن كلّ مكان هو بيت لهم، ويعتبرون أنفسهم رجالاً خطرين. فالمبشر صاحب النجمة شأنه شأن المفتش (المرشد) صاحب العمامة، وشأن المشعوذ ذي القفطان الأبيض، ثلاثتهم يجهلون حكمة الأشياء المنتهية. كذلك تفعل الأديان العالمية، التي تستسلم إلى المنحدر نحو اللانهائي- بدلا من أن تعاود صعوده. لا يتبين المستعرب أندريه ميكيلAndré Miquel [1]، الحدودَ في الإسلام حتّى مشارف الألفية الأولى. للأمر صلةٌ بمناطق نفوذ، لا بالأراضي (حدود الصحراء الكبرى المغربية طبيعيةٌ، لكنها ملتبسة؛ متحرّكة ومتنازع عليها في إسبانيا ومع بيزنطة، لكنها دائماً مزعجة وغير شرعية). وفقاً للشريعة الإسلامية، يقسّم العالم بين دار الإسلام ودار الحرب. وبينهما لن تكون الحدود إلا محض محطة استراحة. أهي عملة المطلق؟ لا يمكن لأي عقلٍ علماني القبول بهذا الزعم ذي القيمة الكليّة العالمية، سواءٌ أكان ذلك من طرف الأمّة النيو- قروسطية، أم من طرف الغرب النيو- تبشيري. فالقيمة الأولى للحدود هي في وضع حدّ للقيم.

- امبريالية: بما أن الإمبراطورية لا تتعارض مع المملكة في كتلتها الجغرافية، بل تتعارض معها في أن الإمبراطورية تفرض الحدود على الغير لا على نفسها. استعادتْ روما الجديدة شعار روما القديمة، الذي نادى به أوفيد Ovide[2]: «أُعطيت الشعوب الأخرى أراضٍ محدّدة: أمّا روما والعالم فلهما الامتداد نفسه»[3]. تغطي منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو)، منذ الآن وصاعداً، القوقاز وآسيا الوسطى. وقد أطلقت واشنطن على الفصل الأوّل من «حربها

1- أندريه ميكيل -André Miquel. (1929) مؤرخ ومستعرب فرنسي مختص باللغة والأدب العربي من أهم مؤلفاته الأدب العربي، العرب الإسلام وأوروبا، الإسلام وحضارته من القرن السابع وحتى القرن العشرين، وقد حاز هذا الأخير على جائزة الأكاديمية الفرنسية.

2- أوفيد Ovide ولد عام 43 ق.م. في وسط إيطاليا ومات 18 ق.م. هو شاعر لاتيني عاش في الفترة التي شهدت ولادة الامبراطورية الرومانية ولد بعد مقتل يوليوس قيصر بعام.

3- اوفيد فاست 2، الجزء الثاني ص 683-684.

على الإرهاب» اسم «عدالة بلا حدود»، وهي التي انتهت إلى فشلٍ ذريع. وأصبح تعبير «واجب التدخل» كأنّه ماء الورد الذي يعطّر إمبراطورية الغرب العجوز. فهي لم تعد تعتبر نفسها مضطرةً لإعلان الحرب من أجل خوضها، ولم تعد تأبه بحقّ الناس باعتباره حاجةً. وبما أنّ حقّها يعادل حقّ الجميع، فالقانون الدولي لا يسري عليها. كلّ دخيلٍ هو شريك - أو زبون - محتمل. تختلطُ الأمور بالنسبة للمزدهي المتعجرف القائل بشعار «تجاه المدينة وتجاه العالم» urbi et orbi [1] الملتبس؛ بين الجنود والمرتزقة، بين الحروب الاستباقية وحروب الدفاع المشروع، بين التدخل الأحادّي الجانب ومساندة قصديّة (اختيارية) بالإجماع، بين التحالف والهيمنة. في بودابست، وبراغ، وكابول، وفيتنام، والعراق، وأفغانستان أيضاً: يكمن شقاء الإمبرياليين الذي يقودهم إلى الهلاك، البارحة كما اليوم، لاعتبارهم أنّ الحدود سمة نافلة، وتحصيل حاصل.

وكي يكون هناك جيران «جيدون»، فلا بدّ من أن تكون الحدود- هذا صحيح- جيدة أيضاً. كان لشارل ديغول حسّ تنبؤيّ، إذ وضع على غلاف كتابه «النزاع عند العدو» الذي نُشر عام 1924، شريطةً ورقيّة كُتب عليها: «إن ما سيؤدّي بألمانيا إلى الخسارة، هو احتقارها للحدود التي خطّتها التجربة ورسمها الفكر الصائب والقانون» -احتقارٌ يستطيع بموجبه الألماني المعاصر، ألماني ما بعد البطولة، أن يعفي نفسه منه. هذا الألماني ذو الأنانية الهادئة، المحبّ للحياة والمتروي، يستطيع أيضاً أن يعيدَ المديح للفرنسي مانح الدروس «المزمنة». فقد كانت حكمةً من طرف الرئيس فرانسوا ميتران، المطالبة، مع

1- في الشعائر الكاثوليكية تكون مباركة أوبري أوبري urbi et orbi صوتية يلفظها البابا من أعلى شرفة في كاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان أيام عيد الفصح وعيد الميلاد ميلاد المسيح وغيرها من تواريخ استثنائية نادرة، ويأتي اسمها من اللاتينية بصيغة المجرور إلى المدينة وإلى العالم»، رامزة بذلك إلى واقع أن البابا يعبر في الوقت نفسه باعتباره أسقف روما متوجهاً للمخلصين الحاضرين جسديا على ساحة القديس بطرس المدينة وتالياً روما وفي الوقت نفسه متوجهاً باعتباره الراعي العالمي للكنيسة متوجهاً للكاثولوكيين في بقية أنحاء العالم، الذين يستمعون إليه عبر التلفاز أو الراديو.

غيره من الرؤساء، بأن يحظى خط أودير- نييس Oder-Neisse (الذي يفصل بولونيا عن ألمانيا)، بالموافقة، والتثبيت، قبل المصادقة على إعادة توحيد الألمانيتين. وطالما يكون التوافق حول إطار الحدود على الأرض غائباً، تبقى الديموقراطية هشةً ضعيفةً، بل وحتّى، غير شرعية. إذ من السهل أن نرى على سطح خريطة العالم، كيف أنه في الأماكن الملونة بالرمادي بين مكانين، وفي تلك التي تتراكب الخطوط المنقطة عليها، يعود القول الفصل للقنبلة، والمتفجرات، والسواطير: إفريقيا الوسطى والقرن الإفريقي (الصومال، إريتريا)، والقوقاز وجنوب شرق آسيا (كمبوديا، تايلاند)، وآسيا الوسطى (كشمير)، والشرق الأدنى (لبنان،كردستان). ويبقى النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي، المثال الأفضل تمثيلاً على الخارطة، لفضائل الخط الفاصل المهدِئة. فإسرائيل هي دولةٌ تطالب -بحقّ- أن تكون لها حدودٌ آمنة ومعترف بها، لكنها لا تحدّدها. كما يعبّر عن ذلك الإسرائيلي أوري أفنيريUri Avnery [1]: «ما هو لبّ السلام؟ الحدود. فعندما يتفقّ شعبان جاران على صنع السلام، فإنهما يثبّتان، قبل أيّ شيء آخر، الحدود بينهما». وهو ما لم توضّحه - كما يشرح- أبداً الحركة الصهيونية، فاتحةً بذلك المجال لقضم لا نهائي للأراضي. وقد قام بن غوريون بمجازفة حين لم يأتِ، في إعلان الاستقلال، على ذكر أيّ حدود. وتتضح المجازفة في ما قالته يوماً له، رئيسة الوزراء غولدا مائير: «الحدود موجودة حيثما يوجد اليهود، لا حيثما يوجد خطٌ على الخارطة». على المستوطنين إذن، أن يضعوا معلم (خط) الحدود للشرعية، الذي يتقدم مع تقدّم البندقية وعربات المستوطنين، تلةً فتلة. أي هي في المحصلة حرب لمئة عام.

وفضلاً عن هذه المساوئ المعروفة، فلا بدّ - كي نكون منصفين- من إضافة عدم التسامح إلى المنع، ما يجعلُ غيرَ المقبول غائباً (يجب أن أتمكن من

1- أوري أفنيري Uri Avnery كاتب وصحافي إسرائيلي ولد 1923 في ألمانيا. عرف خصوصاً باعتباره مناضلاً لحقوق الفلسطينيين وداعية سلام مقنع. ينتمي إلى تيار جهة اليسار المتشدد الراديكالي الإسرائيلي ويعد ما بعد الصهيونية.

الدخول إلى كلّ مكان، أسمع وأرى كل شيء، أمتلك كل شيء، كما أريد ومتى أريد)، وجعل مضجراً منفراً الفرق (فالـ Ms الأنغلو ساكسونية، التي توّحد Miss Mademoiselle الآنسة، مع الـ Mrs، Madame تمييز لن يكون منتشراً في فرنسا عما قريب). والدعاية المثيرة للغبطة، التي تموّه الاختلافات بين الغني الثري والفقير المفلس؛ فالهوس بالبرامج الأقل انتقاداً (اعتراضاً)، والهوس بالهذر المرهق المتعب والاستهدافي في الحوارات، وبالبرامج السياسية المشابهة للطعام «المقدّم على متن الطائرات»؛ كلّها بضاعة من مستوى واحد، كمقدّمة الجندول، والخدمة الذاتية (كلّ مسحوق غسيل يجب أن يكون في متناول اليد)؛ أي المطالبة بأداء قابلٍ للقياس، وذي ربحية، وكارهٍ للوقت الضائع. حتّى أن الألم نفسه في مجتمعاتنا، مجتمعات التوقيت والتعرفة، لم يعد عامل توحيد بل فوضى. وطقس العبور[1] شيء لا يمكن التخلّص منه بسرعة. أمّا الموكب الجنائزي، الذي يتبعه جيران الحي مشياً على الأقدام، والذي لم يعد يجرؤ على العبور في مقابرنا لئلا يبدّد وقت العائلة، والطواف، والجنازة، والموكب، فكلّها إجراءات سيطردها تعبير «الوقت من ذهب»، من دون كلام. وهناك إجراءات أخرى: ككلّ حيازة منصب (بالمعنى الديني) وكلّ زواج، أو bar-mitsva[2] (احتفاء بدخول الصبي اليهودي رتبة دينية للمراهق)، أو احتفاء بالحصول على الجنسية في مبنى البلدية، أو وضع أوراق اعتماد، أو مناقشة أطروحة دكتوراه في الجامعة، فإنها ستستمر كلّها لمدة طويلة. أنتم في آسيا لديكم الفطنة في التحكّم بجُزيْئات الثانية، عبر عمليات إبطاء مدروسة، فلنقل قطارات Shinkansen[3] فائقة السرعة، من خلال

1- يمثل طقس العبور مراحل حياة الثقافية والاجتماعية لمجتمع ما، طقوس العبور، رينيه جيرار « تشكل طقوس العبور أداة عظيمة للنقاش الديني والاجتماعي».

2- دخول الصبي الصغير الناشئ انتقال وصول الصبي الصغير إلى رتبة الراشد المسؤول من وجهة نظر الدين اليهودي.

3- هي شبكة من «القطارات فائقة السرعة» في اليابان. كان تشغيل هذه القطارات مقتصراً على شركة «السكك الحديدية الوطنية اليابانية»، إلا أنه وبعد خصخصة هذه الأخيرة عام 1987 م، بدأ المجال يتسع ليشمل العديد من الشركات الخاصة.

طقس الاحتفاء بالشاي، و[1]Flash (خبر عاجل) من خلال مسرحيات الـ nô[2].

هذه التغييرات، كتغييرات الراقص، خطوةً وإيقاعاً، وهذا «التناوب بين الانتظارات الطويلة والانفجارات المباغتة»، التي تشير إلى الزمن الياباني، مثلها مثل مباريات السومو والفنون القتالية، وكذلك مثل القرية المطوية تحت الطرق السريعة المعلّقة، التي تشير بدورها إلى استعمالكم للفضاء، تستحق كلّها - كما أظن- دقيقة انتباه من قبلنا نحن الفظّين المحمومين. ثمة بلادٌ كأنها شركات، بلادٌ فهمت الأمركة بطريقة خاطئة، فيها يحلّ الارتكاس محلَ الفعل، وفيها يطرد التعطش للتحديث والمعاصرة أقلَّ (أصغر) احتفاءٍ، باعتبار هذا الأخير نوعاً من التبذير. يقتطع مراقب الإدارة (المحاسب)، من نفقات البروتوكول، بالطريقة نفسها التي يقتطع فيها مخصصات الثقافة، إذ يخلط بين مراسم اللياقة (أدب التصرف) والديكور. فهو يفضّل أن يقتطع من (نفقات المظاهر) مظاهر البذخ وطرق الصرف في الدولة، أكثر من الاقتطاع من شؤونه المالية الخاصّة. وذلك حين لا يكون شيء أكثر ملاءمةً لكرامة القدرة العامة للدولة من خضوع المواطنين العاديين المؤتمنين عليها بصورة مؤقتة.

بما أنه علينا أن نحيا، فلنقم بإعادة نشر المسلحين، ولنطلق حرب العصابات من جديد. إذ بمواجهة مدحلة تضافر الجهود، بكلّ ملحقاتها من توافقٍ وتواطؤ وتسوية، علينا أن نعيد شحذ (قوى اختلافنا الأخيرة)، آخر ما تبقى من قدرتنا على التنوع والاختلاف- فهناك عيوبٌ وعدم لباقة، ولهجات قروية تحتاج إلى مترجمين، ورقصات وآلهة، ونبيذ وموبقات. يجب على كل الثقافات أن تتعلم عدم الاكتراث، وكيف تصمّ آذانها وأن تتمترس وراء تحفظها، بل

1- رسالة تبث على وجه السرعة من أجل إعلان خبر مهم على التلفاز.

2- دراما غنائية يابانية ذات طابع ديني وتقليدي، مسرحية دراما.. مآس غنائية تقليدية يابانية.

وحتّى رفض الفهم. وقد رفع فيرنان بروديل [1] لائحة بهذه الغرائب في كتابه «القواعد النحوية للحضارات». ومهما كانت تلك الحضارات قابلةً للاختراق ومضيافة، ومهما كانت قادرةً على الإثراء عبر القوافل والمرافئ، ومهما كانت جماركها (حدودها) مترددة وبطيئة، فإن لها كلّها آلياتها الخاصة في التصفية وفي إباحة الفيزا. (انغلقت بيزنطة في وجه العالم اللاتيني، وكذا إيطاليا أمام الإصلاح (البروتستانتي)، والعالم الأنغلوسكسوني أمام ماركسيّة العمال..إلخ). «عادةً ما تنفر حضارة ما، من تبني (أي) ملكية ثقافية، تضع إحدى بناها العميقة موضع تساؤل». إذ إن رفض الاقتباس هذا، وهذه العدائية الخفية، يقودان دائماً إلى صميم الحضارة. للوهلة الأولى تبدو كل حضارة شبيهة بمحطة بضائع لا تكفّ عن الاستقبال ولا عن إرسال البضائع غير المتشابهة. وفي الوقت نفسه، فإنها -إذ أُثيرت- ترمي بعناد هذا الوارد الخارجي أو ذاك[2]». فالمزج بين الوارد والصادر يتطلب مهارةً كمهارة العطار. كلّ حدود شأنها شأن الدواء؛ علاج وسمّ في وقت واحد. ذلك لأن الأساس يتعلّق بالمعيار. وحبذا لو قام مدراؤنا المكلفون - الميالون إلى تمثيليات التقارب والمجاورة، وإلى الجدران الكاذبة المصنوعة من زجاج- بدور عطارين قديرين، على الأقل، في حال كان التحقق من الوحدة الأوروبية، يحتاج كيمياءً تتجاوز مقدراتهم.

لنتخيل الأمر بوصفه كابوساً. هل زالتْ خطوط الحبر البنفسجية من على سجلات البلدية؟ وهل انتهتْ حرب الجميع ضد الجميع في القرية أو بين المدرسة والتلفاز؟. هل مُحيت الأميّة المتفشية (بما أن المدرسة حاضرة على كل الشاشات فلمَ توضع في مكان معين؟). هل زالت الحدود بين المدينة المسورة وبين أرباضها؟ وهل انزلقت المدينة نحو ضواحيها؟. هل تلاشت

1- فيردينان بروديل 1902) Fernand Braudel-1985) مؤرخ فرنسي وأحد ممثلي مدرسة الحوليات الأكثر شعبية الحوليات التي تدرس من بين ما تدرس الحضارات والحركات الطويلة المدى بالتعارض مع التاريخ الأحداث.

2- فيردنان بروديل آتود 1987.

الفروق بين الأعمار؛ بين الطفولة، والمراهقة، والنضج؟. وكما بلح البحر (نوع صدف) الذي لا شكل له يلتصق بصخرته، يعيش المراهق الثلاثيني عند أمّه. في البدء، كان فكر الكيتش (الفن الهابط) مثل أغنية وادعة لطيفة، يريد إلغاء كلّ ما في الحديقة من أشواك، بيد أنّه بذلك حوّلها إلى صحراء. وقد بدأت بلادي تضيق ذرعاً بهذا، وهو ما نراه يولد مجدداً - مهما أراد لنا ساستنا أن نعيش تحت كابوس؟ ثمة سعيٌ إلى تحديد مراحل التدريب بحجارة بيضاء، كما لو أنّه إعادة لرسم لعبة الأوزة[1]، حيث كل مربع - مرحلة يستحق تلقيناً، من مثل الدخول إلى المدرسة أو الخروج من الحياة. ثمة كذلك سعيٌ إلى تقطيع روتينية الأيام، وإعادة ابتكار لطقوس العبور. أنتم أيها اليابانيون، تحتفلون بعيد اعتدال الربيع مرتين؛ يوم في الخريف وآخر في الربيع، هما يوما عطلة عندكم. أنتم تعرفون كيف تبرزون نبتة الوستارية[2] قرب نبتة الأزالية[3]، والطفل لصق الشيخ، وسمك الشبوط جنب القصب. وقد رأيتُ البارحة الزهرة الأولى لشجرة الكرز الأولى تفتتح نشرة أخباركم المتلفزة. نحن في فرنسا لا نملك كبرياءً متواضعاً مماثلاً. فالسوسن عندنا يزهر في الإهمال. تحدّدون العتبات؛ أما نحن فنمحوها. غير عارفين أنه على سطح نهرٍ هادرٍ وغير هادئ، ثمة ما هو أكثر إحباطاً من هَويس القناة[4]؛ أو من غيابه نفسه.

في المحصلة، تبالغ السيادات الصغيرة المتلاشية والهالكة - حيث وضع الحدود الذاتي لا يكون من تلقاء نفسه (افتحوا الجرائد)، في إعادة تشكيل الـ «نحن»، ضمن فضاء اقتصادي صُيّر متناغماً متجانساً، مهما كلّف الأمر.

1- لعبة الأوزة هي عبارة عن لعبة جماعية تُحرك فيها الأحجار وفق الرقم الناتج عن رمية النرد. وتحتوي اللعبة على 63 مربعاً متموضعاً بشكل حلزوني وعلى عدد من الأفخاخ. الهدف هو الوصول قبل الآخرين إلى المربع الأخير.

2- نبات فصيلة القرنية.

3- نبات صحراوي فصيلة الخلنجيات.

4- الهويس: قنطرة على نهر أو ترعة ذات حاجز آلي يحجز الماء الأعلى عن الأدنى حتى تنقل السفن من أحد الماءين إلى الآخر.

فالعولمة نفسها تستدعي إقامة الجدران المكهربة والمراقَبة عن طريق الفيديو، ضدّ تهديدات تشعر بها هذه السيادات كنقطة خطرة، داخل حدودها أو خارجها[1]، لأنها عصية لا تدرك. وبغية إبطال أثر الفصل العنصري والانقطاع، علينا ألا نأنف من أعمال الخياطة. إذ إن الاختلاط البشري لا نصل إليه من خلال رمي بطاقات الهوية في سلة، بل من خلال توفير جواز سفر لكل شخص.

تنتظر الحدود لجنتها الأخلاقية. المشروعة منها فقط ستكون مقبولة: المحترمة والمعلن عنها، وذات الاتجاهين، التي تشهد على وجود الآخر واقعاً وفعلاً. سيقال عن حدودٍ ما بأنها جيدة طيبة، (إذ ثمة حدود شريرة جداً) عندما تسمح بالذهاب والإياب، فهي الطريقة المثلى والفضلى كي نكون منفتحين. فالبلد كالفرد، كلاهما يموت بطريقتين؛ إمّا عبر الاختناق أو عند التعرّض لتيّارات الهواء. إمّا حبيس جدار أو طلقٌ مفتوح. لذا فمن الملائم، التناوب بينهما من أجل إيجاد الإيقاع الصحيح. - في اللغة اليونانية القديمة اللفظ rhuthmos، جذره rhein، أي يسيل، ويعني كذلك مفهوماً جغرافياً يشير إلى تنظيم الأجزاء في الفضاء، وهو «شكل» في لفظ واحد، لكنه لاحقاً صار يعني التقطيع في الزمن. فلا شيء يعطي الحيوية بقدر ما تعطيه الإطلالة على الخارج من خلال الأبواب الصفّاقة والمفتوحة على مصاريعها، كتلك التي رسمها مارسيل دوشان. حارسة للطباع الخاصّة، علاج للأنانية، مدرسةٌ للتواضع، مثيرة «خفيفة» للشهوة، حاثّة على الحلم، فإن الحدود المعترف بها، هي أفضل لقاح ممكن ضدّ وباء الجدران ومرض الأسوار.

عندما يخلق الجدار المناوئ معارضةً بين الهوية - الصلة وبين الهوية-الجذر، ويرفض الاختيار بين المتبخر والمتكيس، وبين البعيد الذي يذيب، والشوفيني الذي يحجّر ويكلّس. فإن هذا الجدار المناوئ الذي أتكلّم عنه، هو أفضل من تحريضٍ على السفر: فهو يطالب باقتسام العالم.

حين ننكر التقسيم، ألا نكون بذلك ممتنعين عن الاقتسام؟. قد اعتبر إيميه

1- مصطلح خاص بالاتحاد الأوروبي يعني خارج الحدود الوطنية وما بعدها.

سيزير[1] أنه من الممكن أن نتلاشى عند «الانعزال في الخاص والفردي، وعند الذوبان في العام والجماعي». وحيال هذين الانتحارين، يبدو الثاني اليوم أكثر إغراءً، ومجزياً أكبر. فكل شيء يتمّ من أجل إقناعنا بالانضواء تحت التيار السائد Mainstream، والالتحاق بالركب، ومحاكاة الناجح Successful. فليس لأنكم أقلّ يابانيةً، استطعتم الفوز بحصص أكبر من السوق. أمّا نحن الأوروبيون، فلنا كل المصلحة في تذكر هيراقليطس، الذي يعلّمنا كيف نرمي النبال: من خلال إعطاء الوتر والقوس قوى متعارضة الاتجاه. إذ حين يدفع كل شيءٍ باتجاه العالمي، فالشدّ باتجاه المحلي يخلق التوازن. فيلم المؤلف يتعارض مع فيلم الـ blockbuster[2]، كما تتعارض الكرمة الفالتة مع الكرمة المسيجة[3]، وكما يتنافر المغني Brassens[4] مع موسيقى Heavy metal. إلغاء الحدود بين الأنواع - كما بين الفيلم الوثائقي والترفيهي مثلاً- الذي نتبجح به في القنوات الفرنسية، لا يمجّد الهجين المميّز ولا ينصّبه، بل يمجّد معدل المشاهدة، كما المسحاج يفعل بالخشب، إذ لا يأبه بالتفصيل، ولا يرى الفرق، ويكشط كيفما اتفق في كل الاتجاهات.

هي نهاية الأسلوب، وانتصارٌ للمنتج المتوسط الجودة لجمهور عادي. إنه استعباد للإحصاء والعدّ. وتدريبٌ -من يدري؟- على الخمول النهائي، ذاك الذي سيقدّم لنا عبر ألف شاشة وشاشة، في وقت واحد: لغة واحدة، أخلاقاً واحدة، نكهةً واحدة، ونوعاً واحداً من التفاح وملكة جمال عالم واحدة للعالم كلّه. ولم لا نقول في النهاية، رئيس واحد عالمي لبلد واحد عالمي؟ ما من عيبٍ أسوأ في ثقافة ما من أن تكون وحدها، ذلك لأننا سنصاب بالملل والكآبة ما

1- إيميه سيزير Aimé Césaire شاعر ورجل سياسة فرنسي مارتينيكي (1913-2008) هو أحد مؤسسي الحركة الأدبية للسود ومناهض عنيد للكولونيالية.

2- يشير هذا المصطلح إلى إنتاج مسرحي أو سينمائي نجح جماهرياً.

3- السيباج cépage نوع من كروم العنب.

4- جورج براسنس Georges Brassens (1921- 1981)، شاعر ومؤلف موسيقي فرنسي، لحن عدداً من قصائده وقصائد شعراء آخرين وحصل على جائزة الشعر الكبرى من الأكاديمية الفرنسية عام 1967.

أن نقبل بالاختلاط (أيضاً، بدورنا). لن يجد «المواطن الافتراضي» خصوبته من دون أن يجد، بطريقة ما، متخيّله عن الحدود، ونفاد صبره حيالها، وانفعاله قبالتها. تلك الحدود التي تثير الرعشة مثلما يثيرها رفع الستارة في المسرح، والتي لا نجتازها من دون انقباض خفيف في القلب، تحت نظرة موظف الجمارك الشاردة بشكلٍ مضلِّل. تلك الحدود التي عليها أن تعبر كل توقٍ روحاني، الذي لا تصحّ «تربية عاطفية»[1] من دونه. تلك الحدود التي تتيح لنا تقديراً للذات صحيحاً (إذن، وبالتالي محدود). وتلك التي يطرد الميل الشديد إليها، تصلّب الشرايين، ويطرد تلك اللامبالاة: «كل الأماكن متشابهة، فما الفائدة من الذهاب لرؤية مكان آخر؟». الحدود، تلك الصاعدة، التي تثيرُ فينا الرغبةَ بالاغتراب، تجعل الضجر القاتل ينحسر عنّا. وتتوقف على المحافظة على الحدود، استمراريةُ مقولة «مواطنو عوالم عدّة وفي وقتٍ واحدٍ» (اثنان أوثلاثة هذا ليس سيئاً البتة)، وليس على مقولة «مواطنو العالم»، تلك الكليشيه المتعجرفة التي لا تُلزم بشيء. فمواطنو العوالم العديدة سيصبحون بذلك، أندروجيناتها[2]الخصبة، التي ليست إلا الرجال - الحدود.

هل أستطيع أن أمرّر لكم في الخاتمة - مهما متسكعاً كنتُ، فأنا شبه محترف- ما كنت لأحبّ همسه في أذن مواطنيّ الممتلئين بفرنسيتهم، حال ما زلت أمتلكُ الشجاعة في رمي الحصى في المستنقع؟. «أنتم الذين حلمتم، حين كنتم أطفالاً يعشقون الخرائط والرشم[3]، حيث الأنهار لازوردية والجبال مكدرة سمراء. أنتم الذين تحبون المراكب السكرى النشوى، والشموس البحرية لأنّ «مناجم الذهب توجد دائماً، في ما وراء الحدود»، ولأن صاعقة

1- عنوان كتاب لغوستاف فلوبير .

2- الأندروجين هو هرمون للذكورة ويطلق عليه أيضاً هرمون الخصية، وهذا الهرمون يساعد على الحفاظ على الخصائص الجنسية للذكر، وهرمون الأندروجين الأساسى هو التستوستيرون.

3- أختام يابانية خاصّة.

الحبّ المحضّ توجد وراء النهر؛ أنتم الذين تخشون ما هو عديم الطعم أكثر مما تخشون الطعم الحرّيف، الذين تفضلون المدنِّس المرجِّس على اللا مبالي اللا مكترث، الذين تتساءلون كيف نبقى عبيداً؛ أنتم تسعدون أكثر بوجودكم في «الداخل» أكثر من وجودكم على كلوشميرل، أو ليون أو باريس، أن تكونوا في البلد لا في «المنطقة»: أنتم أساتذة المدارس، الذين لن تيأسوا يوماً في المستقبل من أن تشهدوا احتفالاً نسوياً بالتنورة، وأنتم طلاب فيلتانوز[1]، ونانتير أو ميراي، الذين تحلمون بحرم للجامعة ذي البوابات الضخمة للدخول، وبجامعات لا تكون أديرةً مغلقةً ولا أرضاً محرمة no mans land بين مرآبين، (وبذلك فإنها ستكون مصفحةً بأسياج وقضبان وحراس للأمن)، لكنها ربما تكون صورةً عن أفضل جامعة عامة في اليابان:Akamon أيّ «الباب الأحمر». أنتم الذين تتحسرون على عدم وجود مقصورات للمدخنين وأخرى لغير المدخنين، في القطارات، لا تشعرون بالحاجة في المترو، أو الـ RER مترو الضواحي،إلى معرفة كلّ شيء عن الحياة الجنسية لجاراتكم، فالهاتف المحمول مثبتٌ في أذن ذاك الذي يشرح بصوتٍ مرتفع وبإطالة لصديقته، أن باولو الذي لم يكن رفيقاً جيداً في الفراش على أي حال، كان بالأحرى دنيئاً قذراً.. إلخ. أنتم الذين كنتم لتحبون كثيراً أن ندلكم بوضوح أين يبدأ نطاق منطقة التسوق وأين ينتهي، لئلا يختلط في ذهنكم مركز المدينة مع المراكز التجارية، هذا هو منطق السوق والخدمات العامة، والجشع والتفاني: أنتم العلمانيون الذين لا تتمنون أن يقتحم الربّ الأبواب كلّها هنا في الحياة الدنيا: أنتم رهائن الضجيج، تحلمون بأقطاب يسود الصمت فيها، وتحلمون بوجود مناطق للابتسام، كما توجد طرق المشاة، أنتم المجندون للفحش، الذين تحلمون، على هامش حلبات القتل حتّى الموت، بأحواض للكياسة وللباقة كما كانت في الماضي أحواض تستقطب فرص العمل [2]: اطلبوا إذن، من وزرائكم

1 - فيلتانوز Villetaneuse بلدة فرنسية.

2 - فضاء جغرافي حيث يعمل غالبية السكان، ويعد جاذباً للأعمال والوظائف.

ونوابكم وشيوخكم أو حراس حدودكم المهمِلين، لكن المكثارين المهذارين في ما يخص حقوق الإنسان، أن يضيفوا إلى اللائحة الحق في الحدود من أجل التصدي للانزلاقات المميتة، -كل شيء سيّان، هم متشابهون متماثلون، فلا قيمة لشيء. حقّ؟ لا، بل إن واجب الحدود هو حاجة ملحة.

هل أنا بحاجة أصدقائي الأعزاء، أن أعبر عن امتناني -La maison franco japonaise للبيت الفرنسي- الياباني الذي تكرّم بدعوتي؟ فمن حسن حظّ المعهد أن يكون يابانياً خالصاً. اعذروني لأنني استفدت منه. معتمداً على ما تبقى لي من سمعتي، لكنت قد تحفظت في باريس، أمام جمهورٍ فرنسي أن أعرض أفكاراً لرنينها أثر فظّ خادش. لو لم أكن متيقناً متأكداً من أنهم سيصغون إلى ما أقوله جيداً، لكنتُ كما معكم، على هذا النحو، من دون بصيرة وتفكّر.

أشكر لكم حسن ضيافتكم، فهي لا تقدّر بثمن. فهذا العصيّ على التقدير، لهو دليلٌ لكل ما يحمل قيمة في السوبر ماركت الـ Uniprix «الثمن الموحد» العالمي.

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

- طبائع الاستبداد ..... عبد الرحمن الكواكبي
- برقوق نيسان ..... غسان كنفاني
  (القميص المسروق) وقصص أخرى
- الأئمة الأربعة ..... سليمان فياض
- الفصول الأربعة ..... عمر فاخوري
- الإسلام وأصول الحكم ..... علي عبدالرازق
  بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام
- شروط النهضة ..... مالك بن نبيّ
- صلاح جاهين ..... محمد بغدادي
  أمير شعراء العامية
- نداء الحياة ..... أبو القاسم الشابي
  مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب
- حرية الفكر وأبطالها في التاريخ ..... سلامة موسى
- الغربال ..... ميخائيل نعيمة
- الإسلام بين العلم والمدنية ..... الشيخ محمد عبده
- أصوات الشاعر المترجم ..... بدر شاكر السياب
  مختارات من قصائده وترجماته

- فتنة الحكاية ..... ترجمة: غادة حلواني
  جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل
- امرأتنا في الشريعة والمجتمع ..... الطاهر الحداد
- الشيخان ..... طه حسين
- ورد أكثر ..... محمود درويش
  مختارات شعرية ونثرية
- يوميات نائب في الأرياف ..... توفيق الحكيم
- عبقرية عمر ..... عباس محمود العقاد
- عبقرية الصدّيق ..... عباس محمود العقاد
- رحلتان إلى اليابان ..... علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
- لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر..... ميخائيل الصقال
  أو (الغاية في البداءة والنهاية)
- ثورة الأدب ..... د. محمد حسين هيكل

في مديح الحدود

ريجيس دوبريه

«من لا حدود له لا مستقبل له».. هذه هي الفكرة الأساسية التي يطرحها ريجيس دوبريه في هذا الكتاب الصغير، بالغ الأهمية «في مديح الحدود». وهي فكرة تنسجم مع تاريخ دوبريه الفيلسوف الفرنسي، والمناضل الأممي الذي غادر بلاده ذات يوم ليلتحق بالمناضل الأممي تشي غيفارا مقاتلاً في أدغال وغابات كوبا وبوليفيا.

«ثمة فكرة غبية تفتن الغرب: ليست الإنسانية بخير، وستغدو أفضل من دون الحدود»، هكذا بوضوح شديد يعارض دوبريه الفكرة التي أشاعتها العولمة، ويقرأ المفارقة التي يعاني منها العالم اليوم، حيث تتزايد القيود على حق الانتقال بين البلدان، بينما تتمتع السلعة بحرية مطلقة في العبور من الشمال الغني إلى الجنوب الفقير.

العدالة هي هاجس هذا المفكر الضد صاحب «حياة وموت الصورة» و«ثورة في الثورة» و«نقد العقل السياسي». لا يتخلى دوبريه عن حلمه بعالم أفضل في كل ما كتب في الفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة، وحتى فيما عالجه من الفن الروائي مثل «الثلج يشتعل». وهذه المحاضرة «في مديح الحدود» إضافة أخرى لعطاء دوبريه الممتد، وهي هديتنا لقراء الدوحة هذا العدد، وقد أضافت الناقدة والمترجمة السورية دهبة الشكر الهوامش التي تجعل نص دوبريه مفهوماً بشكل أوضح للقارئ العربي، إذ يستخدم الكثير من الاختصارات والاقتباسات ذات المرجعية الأوروبية.

www.aldohamagazine.com